رواية

ياسمين علي هلال

في أي ظلمة تعيشون

رواية

في أي ظلمة تعيشون

هذه الرواية ليست اعترافًا، وليست سيرةً مكتوبة بالحبر،

إنها حكايةٌ خُلِقت من الخيال... لكن وجعها حقيقي، وخوفها يسكن فينا،

ونبضها يشبه نبض قلوبٍ كثيرة صمتت طويلًا.

هي قصةٌ قد لا تكون حدثت كما تُروى، لكنها حدثت في الأرواح،

في البيوت التي تخفي دموعها، وفي القلوب التي تعلّمت الصبر قبل أن تتعلّم الكلام.

شخصيات هذه الرواية وُلدت من الخيال، لكن مشاعرها واقعية حدّ الارتجاف،

خوف، اتهام، صمت، وانكسار...ثم يقينٌ لا ينكسر مهما اشتدّ الظلم.

هي رواية عن فتاةٍ لم تُهزم، وعن ثقةٍ كادت تُقتل،

وعن إيمانٍ وقف وحده حين تراجع الجميع.

اقرأها لا بعينيك فقط ، بل بقلبك... ،فربما وجدتَ بين سطورها وجعًا يشبهك،

أو صمتًا عشتَه يومًا، أو حقيقةً لم تستطع قولها.

تأليف

ياسمين علي هلال

اهداء

لمن قال لي يوما

"لا تقرئي كمن يلتقط الماء بكفيها،

بل اقرئي كالنهر الذي يعلّم الصخور كيف تُغنّي..."

في جعبتك يا صغيرتي

قرآنٌ.... ينير دربك،

وقلمٌ..... ينسج أحلامك،

وعقلٌ.... يتحد الظلام

فاكتبي... حتى لو على أوراقٍ قديمة،

واقرئي... حتى لو تحت شمعةٍ ضعيفة،

وثقي بأن كل حرفٍ تكتبينه،

هو خطوةٌ نحو فجرٍ جديد.

إلى أستاذي ومعلمي

صدام مثنّى أبو الزهراء،

أهدي روايتي هذه،

عرفانًا بجميلك،

وامتنانًا لحرفٍ أشعل في داخلي ضوءًا

لن ينطفئ ما حييت.

✦ في أي ظلمة تعيشون؟

لم أكن أشبه من حولي كثيرًا... كنت أشعر دائمًا أنني أعيش في عالم داخلي لا يراه غيري.

ملامحي هادئة كأنها خرجت من رحم فجرٍ ناعم، وصمتي كثيرًا ما كان أبلغ من الكلام.

يقولون إن في ابتسامتي طمأنينة تذيب القلق، وإن في عيني بريقًا يجعلهم ينسون ضجيج الدنيا، لكنني كنت أعلم أن ما يرونه ليس سوى انعكاسٍ لنقاء زرعه الله في قلبي.

أنا ابنة بيتٍ بسيط، قديم الجدران، لكنه ممتلئ بالدفء والإيمان. أبي علمني أن الكرامة أثمن من الذهب، وأمي غرست في قلبي أن الرضا مفتاح السعادة.

كبرت على هذه القيم، فأصبحت لي درعًا أواجه بها الحياة.

أنا صيامين... فتاة نشأت في قرية بسيطة، بين الحقول الخضراء والسماء الصافية.

أبدأ يومي بصلاة الفجر، ثم أفتح قلبي للقرآن والدعاء، فأشعر أن روحي تنتعش بطاقة يمدّها الرحمن وحده. بعدها أمضي مع والديَّ إلى الحقل؛ أساعد أمي، وأقف إلى جانب أبي. لا يرهقني حرّ الشمس ولا تعب العمل، فقد تربيت على أن من يزرع اليوم يحصد غدًا.

حين نعود، يعود معنا السرور، كأنه غيمة تظلّل بيتنا المتواضع.

لقد رزقني الله سبعة إخوة وخمس أخوات، وكان بيتنا عامرًا بالمرح واللعب، لا نعرف فيه إلا المحبة، نزرع الخير للغير قبل أنفسنا.

كانت حياتنا سلامًا وأمانًا، حنانًا ورفقًا، حتى كبرتُ وأنا لا أحمل في قلبي حقدًا على أحد.

تربيت على القرآن وحلقات الذكر، وكنت أشعر دائمًا أن بداخلي شيئًا جميلاً لا يراه أحد، ولا تستطيع الكلمات وصفه. وإذا رأيت شخصًا حطّمته قسوة الحياة، وقفت بجانبه حتى ينهض، وإن عجزتُ، بكيت إلى جواره مواسيةً له.

كنت أركض حافية على تراب القرية، والغبار يتطاير خلفي كذيل عروس صغيرة، بينما يعلو صوت أمي من بعيد تناديني:

- "صيامين... صيامين!"

التفتُّ إليها وأنا ألهث من الركض:

- "نعم يا أمي." - "هيا بنا إلى الحقل." - "سآتي يا أمي."

انطلقنا معًا حتى وصلنا إلى الحقل. وضعت أمي على رأسي مظلّة صغيرة من سعف النخل لتحميني من حرارة الشمس، ثم تركتني وجلست تجمع العشب لبقرتنا. جلستُ إلى جوارها أساعدها، وبين يدي حزم صغيرة من العشب، وإذا بي أحدث نفسي بصوت منخفض.

التفتت إليّ أمي بدهشة وقالت:

- "صيامين... من تكلمين؟"

ارتبكت، وخجلت ثم ضحكت:

- "لا أحد يا أمي."

لكنها أصرت:

- "بل سمعتك! قولي لي..."

تنهدت ثم همست:

- "كنت أقول في قلبي: إن صلاتي وصومي وتسبيحي وكل أعمالي للذي خلقني وحده."

نظرت إليّ أمي بدهشة وقالت:

- "نعم، إنه الله وحده."

هززت رأسي:

- "لا يا أمي... ليس لله!"

وقفت أمي فجأة وقد تملكها الخوف:

- "استغفري الله الآن! ما هذا الذي تقولينه يا صيامين؟"

رفعت بصري إليها ببراءة:

- "معلم التربية الإسلامية يا أمي حدثنا بالأمس عن الله، وعن أقوام لا يعبدونه. قال إن في بعض البلاد أطفالًا يعلّمهم معلموهم أن ربهم هو الصنم، لكن عندما يكبرون عليهم أن يعرفوا ربهم بعقولهم وفطرتهم. أنا استمعت لكلامه، وخفت... خفت أن يكون ربي الذي خلقني في مكان آخر، ومعلمي يخدعني! فأنا صغيرة ولم أتأكد بعد من هو ربي. لذلك أقول: كل أعمالي للذي خلقني فقط."

ضحكت أمي، وضمتني إلى صدرها وقبّلت جبيني، وقالت:

ـ "أنتِ فتاة ذكية... ما رأيك أن تسألي معلمك نفسه؟ قولي له: ما الذي يثبت أنك لا تكذب عليّ، وأن ربي حقًا هو الله؟"

فرحت كثيرًا بما قالته أمي. كانت لا تعرف القراءة ولا الكتابة، لكنها بالنسبة لي أعظم مدرسة تعلمت فيها.

وفي اليوم التالي، دخل معلم التربية الإسلامية، فرفعت يدي بشجاعة وسألته:

ـ "معلمي... أثبت لي أن الله هو ربي، وأثبت لي أن إله الكافرين ليس ربي!"

ابتسم المعلم، ثم بدأ يحدثني عن الله، وعن الرسل، والمعجزات، والقرآن الكريم، حتى ملأ قلبي يقينًا. عدت إلى أمي والفرحة تغمرني:

ـ "أمي! لقد عرفت من هو ربي... إنه الله حقًا."

كنت يومها لم أتجاوز العاشرة من عمري، ومنذ تلك اللحظة بدأ حبي لله يكبر معي عامًا بعد عام.

وذات يوم، طلبت مني أمي أن أحمل الطعام إلى أبي في الحقل. كان النهار شديد الحرارة والطريق طويلًا، فأخذت الطعام وانطلقت. في منتصف الطريق، غلبني الجوع، فأكلت قليلًا من الطعام ثم رتّبته بعناية وكأن أحدًا لم يمسه. واصلت السير، لكن الجوع عاد يلح عليّ، فتوقفت مرة أخرى وأكلت قليلًا.

حين وصلت، سلمت على أبي وجلست في ظل شجرة أنتظره. كان متعبًا، يعمل منذ الفجر، والعرق يتصبب من جبينه. جلسنا نأكل معًا، وأنا أتظاهر أنني أشارك في الطعام بينما تركته يأكل حتى يشبع. غمرني شعور غريب: كأن شبعي ارتبط بشبعه، وما عاد لجوعي صوت.

وفي طريق العودة، كنت أنهك من التعب والجوع، حتى وقعت عيناي على شجرة مليئة بالمانجو. تسللت بخفة، قطفت ثمرة، وبدأت ألتهمها وأنا أواصل الطريق. لم أكن أعرف آنذاك ما معنى الحلال والحرام، كنت فقط طفلة جائعة، تبحث عن لقمة تسد رمقها.

كانت تلك براءة الطفولة...

براءة لا تعرف سوى أنها تريد أن تحيا.

الفصل الثاني: دموع على مقاعد المدرسة

كنت رحيمة جدًا، لكنني أنانية في الوقت نفسه... رحيمة بالموتى، أنانية بالحياة.

كنت أقف في الليل أصلي أكثر من عشرين ركعة نافلة، ثم أرفع يدي وأقول:

ـ "يا رب، وزّع هذه الصلاة على المحتاجين من عبادك الموتى."

كنت أشعر أن صلاتي تضيء لهم كالنور في قبورهم. وأي ذكرٍ أحفظه، لا أبوح به لأحد، بل أحتفظ به لنفسي، أريد أن أكون أقرب الناس إلى الله، ولا يسبقني أحد إليه.

لي أخت تكبرني بعامين، اسمها جمانة. كانت طيبة القلب، حنونة، لكنها تحب أن تنافسني. كنت أطبخ مرة، وشفتي تتحرك بالذكر، فقالت لي باستغراب:

ـ "ماذا تقولين يا صيامين؟"

أجبتها بسرعة:

ـ "لا شيء!"

بينما داخلي يهمس: "سأقول سبحان الله حتى تمتلئ الجنة بنخيلي."

مرت الأيام، وكبرتُ، وها أنا في الصف الثامن الأساسي. وقتها فهمت أن الدال على الخير كفاعله، فبدأت أعلم كل ما أتعلمه.

قالت لي جمانة يومًا:

ـ "صيامين، أنتِ تحبين المدرسة كثيرًا، شغفك بالعلم كبير."

أجبتها بحماس:

ـ "نعم، سأكمل تعليمي وأصبح شيئًا عظيمًا في المستقبل."

ضحكت جمانة بحزن:

ـ "وكيف هذا؟! وأنتِ تعلمين أن لا أحد من عائلتنا يكمل تعليمه، خصوصًا الفتيات. إخواننا الحارث والهمام ووسام وعُلا وشذى وسارة... كلهم توقفوا."

أجبتها بثقة لا تهتز:

ـ "أما أنا... فسأكمل، لأن الله معي."

مضى العام، وجاء عام دراسي جديد. ذهبت مع جمانة وأختي ميرال وأخي عماد الدين إلى أبي، نطلب منه أن يسجّل أسماءنا في المدرسة. لكنه قال كلمات حفرت في قلبي جرحًا لا يندمل:

ـ "جمانة قد أكملت الإعدادي... وهذا يكفي."

سكتت جمانة، فلم تكن تحب المدرسة كثيرًا.

ثم التفت إليّ أبي بحزن:

ـ "أما أنتِ يا صيامين... فلن أستطيع تسجيلك هذا العام. لا أملك مالًا يكفي لكم جميعًا."

صمتُّ وقتها، وحاولت التماسك:

ـ "حسنًا... فليدرس ميرال وعماد الدين."

لكنني في داخلي كنت أبكي ليلًا ونهارًا بصمت، لا يسمع بكائي إلا ربي.

مرت الشهور، ولاحظ معلم اللغة العربية غيابي. كان يسأل عني باستمرار، ويوصل لي رسائل عبر زميلاتي:

ـ "صيامين، يجب أن تحضري المدرسة."

فكان شوقي يزداد، وألمي يتضاعف.

حينها التحقت بحلقة لتحفيظ القرآن. كانت مديرة المركز تتابع أداء الطالبات، وجلست مرة تختبرنا واحدة واحدة. وعندما جاء دوري، قرأت بخشوع، فأوقفتني قائلة بابتسامة:

ـ "حسبكِ... بارك الله فيكِ، قراءتك جميلة جدًا."

فرحت يومها بشكل لا يوصف، فقد شعرت أن هناك من يقرأ ما في قلبي.

وذات يوم سمعت أن المدرسة ستقيم حفلًا للأوائل. ذهبت خفية، جلست بين الجمهور، أحاول ألا يراني أحد من المعلمين. ما إن ارتفع صوت مكبر الصوت حتى سمعت الجملة الأولى:

ـ "درب النجاح لا يعرفه إلا من سار فيه..."

انفجرت دموعي، وغادرت مسرعة لا أحتمل.

لكن رحمة الله كانت قريبة... جاء معلمي مع معلم آخر إلى بيتنا، وأقنع أبي بعودتي للمدرسة. في الغد، عدتُ، وكنت أطير من الفرح. لم أنم تلك الليلة من الشوق.

أكملت العام، لكن سقف التعليم في قريتنا لم يتجاوز الصف التاسع. كنت أظن أن الحلم سيتوقف هناك... لكن داخلي كان يقول: "ليس بعد."

في أحد الأيام، قالت لي ابنة عمي سناء:

ـ "صيامين، ما رأيك أن نذهب السوق ونشتري لنا ملابس؟"

فأجبتها بابتسامة:

ـ "ما رأيك أن نسجّل في الثانوية بدلًا من الملابس؟"

نظرت إليّ بدهشة:

ـ "أجننتِ؟! الثانوية مختلطة، فيها أولاد وبنات، وأهلنا لن يسمحوا أبدًا."

قلت لها بحرقة:

ـ "وماذا عن أحلامنا؟ هل تنتهي هنا؟ لنذهب ونُسجّل... سرًا."

وافقَت، وبدأنا مشوارًا محفوفًا بالخوف. سجّلنا "انتساب"، نحضر فقط الامتحانات. لكن لم يرضني ذلك. قلت لها بحزم:

ـ "سناء، علينا أن نغامر أكثر. ندرس كل يوم، لا يكفي الامتحان فقط."

رفضت، أما أنا فتوكّلت على الله. كنت أخرج من البيت بحجة حلقات التحفيظ، وأذهب للمدرسة. أخفي حقيبتي بعناية، وأدعو كل فجر:

ـ "اللهم اصرف بصر أخي وسام عني، وأعدني سالمة."

وكان الله يستجيب.

رغم خوفي، كنت أشعر أن أحلامي أكبر من خوفي. كنت أقول دائمًا: "الله لن يخذلني."

اقتربت من نهاية ثالث ثانوي، وكل يوم كان صراعًا بين الحلم والخوف. حتى جاء اليوم الذي كاد يهدم كل شيء...

كنا في الفصل ندرس بهدوء، والمعلم يشرح. فجأة تعالت الأصوات في ساحة المدرسة. خرج المعلم ليستطلع، ثم عاد مرتبكًا وقال:

ـ "ولي أمر يتشاجر مع المدير."

ما هي إلا لحظات، وإذا بباب الصف يُفتح بقوة... وصوت كالرعد يصرخ.

رفعت رأسي، فتجمّد الدم في عروقي:

إنه أخي وسام.

تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني. وضعت رأسي على الطاولة، ويدي تمسك بالمصحف بقوة. قلبي كاد أن يتوقف. لكن الحمد لله، لم يكن يبحث عني... بل عن المدير.

عدت إلى البيت مرهقة، وجهي شاحب. قلت لأمي:

ـ "أمي، لقد جاء وسام إلى المدرسة... كدت أموت خوفًا."

ربّتت على كتفي وقالت:

ـ "اطمئني يا صيامين، لم يكن يعرف عنكِ شيئًا. جاء من أجل عماد."

لكنها أضافت بحزم:

ـ "لقد ساعدتك كثيرًا، لكنني لن أسمح لك بالذهاب مجددًا. لو حدث لك شيء، لن أسامح نفسي."

أطرقتُ برأسي. كنت متعبة، لكنني أكملت العام رغم كل شيء.

وفي النهاية، وقفتُ أول فتاة من عائلتي تضع قبعة التخرج على رأسها... أرفعها بفخر، وأقول في قلبي:

"ها أنا حققت حلمي، رغم كل الصعاب."

كنتُ أُكمل حفظي في حلقة التحفيظ حين نادتني المديرة قائلة:

ـ صيامين، هل يمكن أن أستعين بكِ أنتِ وصديقتك حنان؟

ابتسمتُ وقلت: نعم يا معلمتي، تفضلي بما تشائين.

قالت: أريد أن نُجهّز حفلًا يليق بالخاتمات لهذا العام.. هل أعتمد عليكما؟

أجبتها بحماس: يمكنكِ ذلك، سنُجهّز أجمل حفل بإذن الله.

وثقت بنا المديرة من بين جميع الطالبات، وكان علينا أن نكون قدر هذه الثقة.

بدأنا أنا وحنان في التجهيز، وكل شيء كان على أكمل وجه.

لكن ضاق بنا المكان، فالتفتت إليّ حنان قائلة:

ـ مركزنا صغير يا صيامين، لا يكفي الضيوف.

فأجبتها: معكِ حق، ماذا نفعل؟

أشارت بابتسامة: لدي فكرة.. ما رأيكِ أن نذهب غدًا إلى دار الأيتام التابع لمركزنا، ونطلب من مديرتهم استخدام قاعتهم الخاصة بالحفلات؟

أشرق وجهي فرحًا: فكرة رائعة، فلنفعل ذلك.

وفي صباح اليوم التالي، مع خيوط الشمس الذهبية وصوت العصافير يملأ المكان، انطلقنا.

دخلنا دار الأيتام، ألقينا السلام، ثم قصصتُ على المديرة حاجتنا.

لكنها هزّت رأسها وقالت: لا أستطيع أن أسمح لكما بالدخول.

رجوتها: من فضلكِ.. نحن بحاجة إليها بشدة.

تأملتني ثم قالت: بشرط، إن وافقتما فسأسمح.

سألتها: ما هو؟

قالت: أن تأتيا كل يوم لتُعلّما بناتنا القرآن.

نظرتُ إلى حنان، ونظرت هي إليّ. ثم ابتسمنا وقلنا معًا: موافقات، إن شاء الله.

وهكذا تم الاتفاق، وأُقيم الحفل في القاعة، وكان من أجمل الاحتفالات.

لكن لم ينته الأمر عند هذا الحد.. عدتُ إلى حنان وقلت:

ـ الحفل تم، الحمد لله.. لكن ماذا عن عهدنا مع المديرة أن نُعلّم القرآن في المؤسسة؟

قالت: نخبر أهلنا أولًا.

وبالفعل، أخبرتُ أمي وأخبرت هي أمها، ووافقنا.

كان نظام المؤسسة أن يبدأ التعليم بعد صلاة الفجر بساعة.

قلتُ لها: حنان، هذا وقت صعب جدًا، الناس نيام والطريق هادئة ومخيفة.

ابتسمت بثقة: لا تقلقي يا صيامين، نحن سنُعلّم القرآن والأيتام، والله لن يضيعنا.

وفي تلك الليلة، نمتُ عندها استعدادًا لأول يوم.

ضحكت فجأة وقالت: قومي صلي الفجر!

نهضت مرتبكة: أأذّن؟! توضأت وفرشت السجادة، وإذا بها تنفجر ضاحكة:

ـ هههههه، لقد خدعتك! ما زال منتصف الليل، لم أنم بعد من الحماس.

رميت عليها الوسائد وقلت: أنتِ حقًا سخيفة. ثم صليت ركعتين ونمت.

وحين أذّن الفجر حقًا، صلينا معًا جماعة، ثم قرأنا بعض القرآن.

قدّمت لنا تمرًا وقهوة، ثم ارتدينا ملابسنا وخرجنا بينما كل البيوت ما تزال غارقة في النوم.

استقبلتنا الطالبات بحبٍ كبير، ووجدنا أنفسنا نتعلق بهن يومًا بعد يوم.

أحببت مهنة التعليم، ففيها خير كثير يعود على نفسك وعلى غيرك.

وأحببت أكثر أن يُنادَ اسمي: الأستاذة صيامين.

قلتُ لحنان ذات يوم:

ـ ألا ترين أن الحلقات جميلة جدًا؟

ابتسمت: بلى، لقد مر عام كامل ونحن هنا، وكأننا بدأنا منذ شهر فقط.

مرّت أيام أخرى، ونصف عام جديد، وكنت أشعر بالخير يغمر حياتي، وبالبركة تملأ روحي وعقلي وجسدي

الحلم و الواقع

رأيت صديقتي كيان، جلستُ معها بشوق وحبٍّ غامر، قلت لها:

ـ كيان، ما رأيك أن نكمل دراستنا في الجامعة؟ أنتِ تحبين العلم مثلي، بل أكثر.

تنهدت بعمق وأجابت:

ـ آه يا صيامين، أتمنى ذلك، والله أتمنى.. لكنك تعرفين أني بالكاد أكملت الثانوية مثلك، ومستحيل أن يقبل أخي بدراستي.

ثم نظرت إليّ بعينين مثقلتين بالتعب:

ـ وأنتِ يا صيامين، لقد تعذبتِ كثيرًا في الثانوية، يكفيك ما مررتِ به، لا تعودي لذاك الخوف المظلم.

أخفضت رأسي قليلًا، ثم قلت لها:

ـ نعم، لقد عانيتُ كثيرًا. درستُ سرًا، كنت أذاكر خلسة، وأخرج من البيت بخوف يكاد يفتك بي، وأعود متسللة كأنني أسرق شيئًا لا يُسمح لي به.

ثلاثة أعوامٍ عشتها مترقبة، كأنني أمشي فوق خيط رفيع.

ما زلتُ أذكر كيف كنتُ أذهب إلى الحقل مع الفجر لأساعد أبي وأمي، ثم أعود مسرعة إلى المدرسة قبل أن يلاحظوا غيابي.

ولا أنسى أمي.. كم كذبت من أجلي، وكم غطّت على غيابي، كانت تتحمل عني الكثير. لولاها لما أكملت.

أما أبي، فقد رآني ذات يوم أدرس سرًا. ضحك، ثم التفت إلى أمي قائلاً:

ـ دعيها تكمل، إنها تستحق.

ابتسمتُ بحزن وقلت لكيان:

ـ مضت الأيام بثقلها، لكنها صنعت منا أقوى.. دعينا نحاول، لعلنا نكمل الجامعة.

هزّت رأسها:

ـ لا فائدة يا صيامين.

قلتُ بإصرار:

ـ فلنجرب فقط.

وافقت على مضض، ثم غادرت إلى بيتها.

أما أنا، فعدت إلى منزلي، كان العصر قد حلّ، وجلستُ بين أمي وأخواتي وهن يضحكن ويتبادلن الأحاديث.

قلتُ بخجل:

ـ أمي.. أريد أن أكمل الجامعة.

سكت الجميع، ثم ردّت أمي بحزم:

ـ صيامين، هذا مستحيل. لا تحاولي.

تدخلت أختي جمان مبتسمة:

ـ صيامين، أنتِ موهوبة جدًا. لماذا لا تطورين موهبتكِ في التجميل؟ أنتِ كوافيرة بارعة، أكملِي في هذا المجال. إنه جميل ومربح.

دخل الشك رأسي. جلستُ أفكر: هل أطور مهنتي في التجميل فأبدع فيها وأكسب مالًا وفيرًا؟ أم أكمل تعليمي وأصبح معلمة؟

المعلم يرهق، صحيح، لكنه يرث مهنة الأنبياء. أما الكوافير، فلا يمنحني ذاك الأجر ولا ذاك الأفق الروحي.

ليلة كاملة قضيتها في تفكير مضطرب.

ثم التقيت كيان مجددًا،

- بشري يا كيان هل أقنعتيهم

- لم أخبر أحدًا بعد، فأنا أعلم الجواب مسبقًا.

- حاولي، أرجوكِ،

ذهبت إلى منزلها وفي قلبها عهد أن تكلم أخاها، ذلك الذي يقف سدًّا في وجهها.

تساءلت بيني وبين نفسي: لماذا هذه القسوة؟ ما الذي طلبناه؟ لماذا يعترضون؟ أليس معنى الأخ أن يكون سندًا؟

في اليوم التالي، وبينما كنتُ في شوق ينتظر الخبر، سمعت صوتها يناديني من بعيد:

- صيامين! صيامين!

ركضت إليها:

- نعم؟ ماذا حدث؟

قالت وهي تكاد تطير من الفرح:

- لقد وافق أخي!

شهقتُ غير مصدقة:

- حقًّا؟ لا تمزحي معي!

فأمسكت بي واحتضنتني تدور بي في المكان وهي تضحك وتبكي في آن واحد.

- شكراً لكِ يا صيامين، بفضلكِ حاولتُ مرة أخرى، وبفضلكِ وافق. قال إن سبب قبوله أني سأدرس معكِ.

ابتسمتُ بفخر، وقلت لها ممازحة:

- تعالي قبّليني إذن، أنا السبب في فرحتك.

فأسرعت تقبل خدي كما لو أني أهديتها الدنيا.

قالت بحماس:

- غدًا صباحًا سنذهب إلى الجامعة ونضع أسماءنا في سجلاتها.

أجبتها بثقة:

ـ صحيح أن أهلي لم يوافقوا بعد، لكنني سأُسجّل، وعندما يرون جديتي سيقفون بجانبي، أنا متأكدة.

أشرقت شمس الصباح وكأنه أول يوم أراها تضيء الدنيا.

وقفنا أمام بوابة الجامعة.

قلت لها وأنا أرتجف:

ـ كيان، هل نحن فعلًا أمام الجامعة؟

ـ نعم يا صيامين، هذه بداية أحلامنا.

دخلنا بخطوات متثاقلة، المكان مزدحم والأصوات عالية.

تقدمت منا فتاتان:

ـ عن ماذا تبحثان؟

ـ نريد التسجيل.

أشارت إحداهن إلى المكتب وقالت: اذهبا إلى مسؤول الطلاب، سيساعدكما.

طرقنا الباب بخوف، ثم دخلنا على عميد الجامعة.

قلنا معًا: السلام عليكم، نريد أن ننضم إلى طالباتكم.

رفع رأسه ونظر إلينا متعجبًا:

ـ وعليكم السلام.. لماذا تأخرتما عن التسجيل؟ لم يبق سوى أسبوع واحد وتبدأ الامتحانات النهائية. لا أستطيع قبولكما الآن.

تجمدت ملامحي، خفق قلبي بقوة، وانطفأ النور من عيني. قلت له بصوت يملؤه الحزن:

ـ تعبنا كثيرًا حتى وصلنا.. وحين وصلنا تُرجعنا؟

اندهش، وسأل:

ـ ماذا تقصدين؟

قلت:

ـ أقنعنا أهلنا بعد تعب طويل، وبعد أن صدقنا أن الباب فُتح لنا، تأتي أنت الآن وتغلقه؟ كلا.. لن تقفل الطريق في وجوهنا.

تأملهما قليلًا، ثم قال:

ـ حسنًا.. الجامعة ترحب بكما. ، ادرسا جيدًا، فما بقي من وقت قصير لكنه كافٍ للمجتهدين.

أشرق وجهي، شعرت أنني ولدت من جديد

كيان: الحمد لله، قد تم قبولنا...

ردّت عليّ بصوت يمتلئ بالفرح وبعض الحيرة: الحمد لله، لا أكاد أستوعب الأمر!

قلتُ لها مبتسمة: استوعبي يا صديقتي... هذه ظروفنا فقط هي التي جعلتنا لا نصدق أن الالتحاق بجامعة أمرٌ عادي مثل غيره.

ثم تنهدتُ: أتدرين يا كيان لماذا تُحرم كثير من الفتيات من التعليم؟ السبب هو الفساد الأخلاقي عند بعض الفتيات والشباب، وبسببه تُغلق الأبواب في وجه أخريات بريئات، حتى وإن كنّ يملكن ذكاءً مبهرًا وأحلامًا كبيرة. كثير منهن يدفن أحلامه في زاوية غرفته، صامتةً مكسورة... آه يا كيان، ما أقسى هذه الدنيا! الذي يريد العلم يُكبَّل في بيته، والذي لا يريد العلم يضيع في ساحات الجامعات بلا هدف.

ضحكت كيان: تذكرين كيف كنّا لا نغادر مقاعدنا أبدًا من لحظة الدخول حتى الخروج، فقط لكي لا نختلط بالأولاد في الساحة أو المقصف؟

ابتسمتُ: نعم أذكر... وأذكر أيضًا كيف كنّا نحضر طعامنا من البيت. أنتِ تجلبين اللبن والخبز، وأنا أحضر الشاي والسحاوق.

ضحكنا معًا... كانت أجمل الذكريات.

ثم قالت كيان بجدية: لكن يا صيامين، نحن الآن في جامعة، والأمر يختلف. هناك رسوم تسجيل كثيرة، وعلينا شراء كتب عاجلًا، ولم يعد لدينا وقت. وأنتِ تعلمين أن دخل أهلي وأهلك قليل جدًا.

سكتُّ قليلًا ثم قلت: إذن، ما رأيك أن ندرس ونعمل معًا؟ سنرهق بين أعمال المنزل والجامعة وربما عمل إضافي... لكننا سنصمد.

ابتسمت كيان بعزم: نعم سنتحمل بروح قوية. نحن نريد أن ندرس، وسنصنع المستحيل.

وافقتها: إذن على بركة الله.

عدتُ إلى المنزل، وجدت أمي تطبخ مع أختي الكبيرة، وأخي الصغير يلعب بجانبهم. جلسنا نتغدى، وبعدها التفتُّ إلى أمي وقلت:

– أمي... لقد ذهبت اليوم مع كيان وسجلنا في الجامعة.

رفعت رأسها وقالت بابتسامة قوية:

– أنتِ لا تعرفين الاستسلام... ادرسي، وسأساندك بكل قوتي يا ابنتي.

حضنتها بقوة والدموع في عيني: شكرًا يا أمي... شكرًا.

ذهبتُ إلى المخزن وأخرجت حقيبتي المدرسية القديمة. نظرتُ إلى أختي جمانة وقلت لها مبتسمة:

"هل تذكرين هذه الحقيبة يا جمانة؟ في الصف الثالث الثانوي قلت لكِ إنني سأحتفظ بها ليوم أدخل فيه الجامعة، فسخرتِ مني وقتها... والآن، الحمد لله، ها أنا أرتديها في أول يوم دراسي لي."

في صباح اليوم التالي اتصلتُ بكيان والفرحة تغمرني:

– صباح الخير يا كيان.

– صباح الورد يا صيامين. هيا نذهب اليوم لنشتري الكتب.

انتظرتها دقائق حتى وصلت، ثم ذهبنا معًا إلى الجامعة، ومعنا القليل من النقود التي جمعناها من رواتبنا الشهرية. دخلنا المكتبة، ووقفنا أمام الكتب كما لو أننا نقف أمام كنوز الدنيا.

سألنا البائع عن السعر، وكان مرتفعًا جدًا. تبادلنا النظرات، ثم قلت:

– كيان... نقودي قليلة، فقد صرفتُ بعض المال على أهلي، كانوا بحاجة إليه.

– حتى أنا مثلك، صرفتُ على أهلي ولم يبقَ معي إلا القليل.

ثم ابتسمت كيان فجأة: لكن لدي خطة... نجمع نقودنا معًا ونشتري الكتب، ونجعلها مشتركة بيننا.

فعلنا ذلك، وأخذنا الكتب. وبينما نحن في الطريق، أخرجت كيان أحد الكتب، مزقته من المنتصف بعناية وقالت:

– خذي هذا الجزء لتدرسي به، وأبقي معي الجزء الآخر. وحين ننتهي من دراسته نتبادل الأجزاء، وهكذا نكمل الكتاب كله.

نظرتُ إليها بإعجاب وقلت بصوت يملؤه الأمل: حسنًا، سنفعل ذلك بإذن الله.

وهكذا صرنا لبعض، كالسارية تشد ظهر الأخرى...

وهكذا بدأت رحلتنا الجامعية، رحلة كانت أثقل من كل ما توقعنا، لكنها صنعت منا نساءً لا يعرفن الاستسلام.

كبرتُ في تلك القرية البسيطة، محاطةً بحبّ أهلي وبركة الدعاء الذي لم يفارق لساني.

لكن الأيام أخذتني من بين سنابل القمح وهدير الشلالات، إلى مدينة مزدحمة لا تشبه هدوءَ الريف.

هناك بدأت رحلتي الجامعية، رحلةً لم تكن مجرد طلب للعلم، بل كانت بوابة لحياةٍ جديدة مليئة بالتجارب والمواقف.

وفي الجامعة، كنت أحمل معي نقاء قريتي وبساطة طفولتي.

لم أنسَ وصايا أمي، ولا دعاء أبي، ولا تلك الليالي التي بكيت فيها لله أطلب أن يجعلني مظلومة لا ظالمة.

لم أشعر أن تلك الدعوة تلازمني كظلّي،

في الجامعة، يراني البعض فتاة عادية، لكنني أعرف أنني أحمل في داخلي عالمًا آخر... عالمًا من الأحلام، من الطموح، ومن الدعاء الذي لا ينقطع.

أنا لا أخاف من المستقبل، لكنني أخشى أن أخسر نقائي وسط هذا الزحام.

كنتُ أخشى دائمًا أن أخسر قلبي، أن يعمّه الظلام دون أن أدري.

لذلك، كنتُ كل صباح أستودع الله ديني ونفسي وأهلي ومالي وكل أحبتي.

كان الزحام يخيفني، والقلوب المزدحمة بالشهوات ترهقني.

أتذكر يومًا أنني جلست مع صديقاتي نتحدث عن الحب وطرقه، فسألتني إحداهن: "ومن تحبين أنتِ؟"

أجبتها بهدوء: "لم أعبر تلك الطريق بعد لأصف لكِ."

ضحكت بسخرية وقالت: "والله كأنك لا تملكين قلبًا!"

كانت كلماتها قاسية، تتردد في مسامعي إلى اليوم.

ابتسمتُ بصمت، لكن في داخلي قلت: كلا، لدي قلب... لكن قلبي ليس لعبة.

الله وحده يعلم كم جاهدت نفسي، وكم ذكّرتها بأن الجنة مأوى من نهى نفسه عن الهوى، وأن من خاف مقام ربه فله جنتان.

كنت أوقِف نفسي عند كل آية أقرأها، أحاول أن أعيشها بكل جوارحي.

وكنت أحمد الله كلما رأيت الجهل يتخبط من حولي، بينما أنار الله بصيرتي بنوره.

"يا رب، اجعلني قوية بك، ولا تتركني لضعفي لحظة."

لم أكن أدرك أن هذا الدعاء سيصير نجاتي في معركة لم أتوقعها... معركة على شرفي وسمعتي، معركة سأقف فيها بيني وبين خوفي، بيني وبين قلوبٍ مريضة تتربص بي

وذات ليلة، كنتُ أستلقي أحاول أن أُخفف عن نفسي بعض التعب عبر تصفح مواقع التواصل الاجتماعي.

كنتُ أقرأ الحالات والكتابات، واحدة تلو الأخرى،

وقعت عيني على حالةٍ لمعلّمٍ أعرفه منذ زمن،

كلماتُه مزّقت قلبي، إذ كتب:

"كيف ما زلتُ واقفًا ولم أسقط، رغم الخناجر التي في ظهري؟"

حينها عاد إلى ذاكرتي اسم المستعصم بالله...

تخيّلته كما عهدته، يتمشّى في قاعة الصف بخطواتٍ واثقة،

يحمل في يده ورقةً يقرأ منها شعرًا مضى عليه أعوام،

لكن أثره ما زال عالقًا في روحي.

كان يصف بلسان بلبلٍ عفيف، كيف للمرأة أن تعصم قلبها عن الحبّ المحرّم،

وكيف تخرج من بيت أبيها متوّجةً بالمشاقر الخضراء في شعرها،

مرتديةً فستانًا أبيض، وأخوها واقفٌ إلى جانبها،

وأبوها يحتضنها بفخرٍ، يعتزّ بها كما يعتزّ الرجال بوصاياهم وشرفهم.

كان – وما زال – المستعصم أمانَ كل خائف،

وصوتَ الحقّ الذي لا يزول صداه من القلب.

كان الوقت متأخرًا جدًا، والليل ساكنًا، لكن تلك الكلمات هزّت قلبي بشدة.

جلستُ أفكر: هل أرد عليه أم لا؟

لقد طال انقطاعي عنه ولم أكلمه منذ زمن بعيد، لكنني لم أستطع أن أمرّ على تلك الكلمات مرور الكرام.

كتبتُ له بهدوء:

"لن تسقط... أتدري لماذا؟ لأن خلفك طلابًا يدعون لك في الخفاء، بسببك نحن ما زلنا واقفين في صرح التعليم.

أسأل الله أن يجعل كل وقفة لنا في ميزان حسناتك."

ردّ عليّ المعلم بكل حنان، وكأن رسالتي كانت دواءً غسل أوجاعه.

بدأ يبادلني الكلام قائلًا:

"شكرًا جزيلًا لكِ يا صيامين، كلامكِ صنع فرقًا في قلبي. طمنيني عنكِ، هل واصلتِ تعليمكِ؟"

أجبته بفخر:

"نعم يا معلمي، واصلتُ طريقي."

كان هذا المعلم من قريتي، يعرف أهلي ومجتمعي جيدًا ويعلم كيف يقفون أحيانًا حجر عثرة أمام تعليمنا.

قال لي:

"صيامين، ماذا تحبين أن تكوني؟"

قلتُ له:

"كنتُ أحلم أن أكون جرّاحة، لكن ظروفي لم تسمح، فتكاليف هذا المجال باهظة جدًا.

الآن أحببتُ مهنة التعليم كثيرًا، وأحب القرآن الكريم، وأتمنى أن أدرس الشريعة الإسلامية لأكون فقيهة وأصولية."

فقال لي:

"والله يا صيامين، لو كان بيدي لجعلتكِ تدرسين في أرقى الجامعات. اعتبريني من اليوم معلمكِ وأخاكِ وأباكِ. أنا سندكِ بعد الله."

في تلك اللحظة بكيتُ... بكيتُ كثيرًا، بلا توقف.

لم يكن بكائي لأنه وعدني بأن يدرّسني في أرقى الجامعات، فأنا بطبعي لا أقبل شيئًا من أحد.

لكنه قال كلماتٍ كانت روحي عطشى لها؛

أرضي كانت قاحلة وكلماته كانت غيثًا عليها.

قلتُ لنفسي وأنا أمسح دموعي:

"صيامين، ما بكِ؟ توقفي عن البكاء..."

لكن داخلي كان يصرخ:

لقد تعبتُ من المكابرة والكذب على نفسي.

أنا بحاجة شديدة لكلماتٍ كهذه من أهلي وكل من حولي... لكنني محرومة من أبسط الأشياء.

ومع ذلك، لم تكن حياتي كلها جدًا وهدوءًا، كان لي لحظات فرح صافية أحتفظ بها ككنز...

في اليوم الأخير لي من الجامعة، عشت أجمل اللحظات مع زميلاتي.

ضحكنا كثيرًا... وكأننا لم نضحك منذ سنين. كان يومًا مليئًا بالمرح والصفاء، جمع بين القلوب في مودة وألفة، لا غناء فيه ولا منكر، بل كان كنسيمٍ هادئ يغمرنا بسلامٍ نادر.

عدتُ إلى بيتي أحمل في داخلي باقة من الذكريات، كأنها لوحة مرسومة على جدار قلبي، كلما أغمضت عيني رأيتها بوضوح، فتزداد ابتسامتي حلاوة على شفتيّ.

كان يومًا أشبه بالشلال المتدفق من أعالي الجبال، يغسل كل ما يمر به، يترك خلفه نقاءً وصفاءً لا يُقدّر بثمن.

وحين أويتُ إلى غرفتي بعد تلك الرحلة، وضعت رأسي على وسادتي، وإذا بقلبي يهرب بي إلى حيث لا أملك منعه... إلى شخصٍ لم يكن بالنسبة لي مجرد قريب، ولا مجرد رجلٍ مرّ في حياتي.

كان هو اليد التي تنتشلني إن سقطت، وتدفعني لأقف أقوى مما كنت.

حاولت أن أصفه بأربعةٍ وعشرين حرفًا... لكني وجدت الحروف قاصرة، خجلى، تعجز أن تحيط به.

كان معلمَ القرآن الكريم، وشيخَ اللغة العربية، وإمامًا يُصلي خلفه القلب قبل أن تصطف الأجساد.

كان شاعرًا فصيحًا، وصوتًا يفيض بالحكمة، ورجلًا لا يطلب لنفسه شيئًا سوى أن يكون عونًا للخير.

كنتُ قريبة من قلبه حدّ أنني لم أعد أفرّق بين روحي وروحه.

كان يقول لي دائمًا:

"اعتبريني روحكِ التي بين جنبيك..."

فآمنتُ به، وآمنت أنه حقًا روحي التي تسكنني.

كنتُ أدعو الله في سجودي، أقول:

"يا رب، خذ من عمري وأطل في عمره، خذ من صحتي وقوّتي وزد في صحته وقوّته... إن عشتُ فلا قيمة لعمري كعمره، وإن عاش فهو حياة أمة بأكملها."

لم تكن مشاعري يومًا متصنّعة، بل كانت صادقة نقية؛ حبٌّ لا يشبه حبّ الدنيا، بل حبّ يتسامى فوقها... حبّ للعلم، للإيمان، وللروح التي كانت لي وطنًا.

وذات مساءٍ، وبينما كنت غارقة في قراءتي، اجتاحني ضيق قاتل. شعرت وكأن صدري يختنق، وأنفاسي تتقطع دون سببٍ ظاهر، وكأني أبحث عن شيء مجهول لا أعرفه.

لم يخطر في بالي سوى المستعصم بالله... أردت فقط أن أطمئن عليه، أن أعرف حاله، لكنّي لم أجرؤ على سؤاله. اكتفيت بأن رفعت يدي إلى السماء، وبكيت قائلة:

"يا رب اشفه... يا رب احفظه."

وفي أول رسالة منه ، سألته بقلق:

– كيف كان حالك في هذه الفترة؟

ابتسم وكأنه يقرأني وقال:

– هل رأيتني؟

– لا، لكن قلبي كان يبحث عنك.

أجاب بصوت متعب:

– كنت في أسوأ حالاتي... المرض أنهكني، لكنك شعرتِ بي.

ارتجف قلبي، وتوقفت الكلمات في حلقي. كنت أشعر به حقًا، كما لو أن بيننا خيطًا خفيًا يشدّ الأرواح. أحيانًا كنت أكتفي بالصمت، وكنت واثقة أنه يفهم صمتي أكثر من أي حديث. كان يقرأ أفكاري، يفسر دموعي، ويحاور سكوني دون أن أنطق.

قال لي يومًا:

– صيامين، هل تصدقين أني أسمع صوتك وأنتِ تقرئين القرآن؟

ابتسمت بسخرية:

– وكيف هذا؟

قال: – لا تصدقين، لكني والله أسمعك... أشعر بك في كل مكان. تأتينني كنسمة باردة في أوقات لا يجرؤ أحد أن يقترب مني فيها.

ثم أضاف: – صيامين، أريد أن أتعرف عليك، فقد نسيت شكلك تمامًا.

أجبته مازحة: – في الجنة.

فقال بلهجة يملؤها الشجن: – لكن الشوق سيقتلني... أريد أن أراك في الدنيا.

ثم قال:

– إنكِ حقًا فخر لي، مع ابنتي من بين كل بنات قريتنا... أنتن لا تحبن ولا تقطفن الشوك.

أجبته: – أتدري لماذا؟

لأنني أعرف أن الحب يجرح، وأنا لا أحتمل الجراح... نحن قوارير يا معلمي، والقارورة إذا انكسرت لا تعود كما كانت.

كلماته حرّكت شيئًا عميقًا في داخلي... ذكرت الحب الذي مررت منه، وذكرت ابن خالي الذي يحبني كثيرًا ويتمنى قلبي. تقدم لخطبتي أكثر من أربع مرات، لكني كنت أرفض في كل مرة.

قال لي مرة:

– صيامين، تربيت معك منذ أن عرفت قدماي التراب، لعبنا، أكلنا، تعلمنا، بكينا، تعبنا، وعوقبنا معًا... دون كلام، أنتِ تعلمين عمق حبي وصدقي.

ثم صرخ متألمًا: – لماذا... لماذا لم تقبلي بي؟

قلت له: – لأني لا أرى فيك الرجل الذي أريده.

فرد بحرقة: – أشكوكِ إلى الله وحده. ثم انصرف... وبكيت يومها طويلًا:

"يا رب، أنت أعلم بصدري... لا أريد أن أؤذيه، لكني أريد رجلًا يعينني على ديني، وهذا ليس فيه."

وفي إحدى الأمسيات، اجتمعنا نحن الأخوات الخمس في حوش البيت، في الهواء الصافي، مع غروب الشمس وصوت الهدوء يملأ المكان. بدأت كل واحدة تتمنى شكل زوجها المستقبلي.

قالت شذى: – أتمنى رجلًا ثريًا يعطيني كل ما أريد.

سارة قالت: – وأنا أريد رجلًا يملك سيارة، ليأخذني إلى كل مكان.

أما جمانة فقالت: – أتمنى أن أتزوج شخصًا أحبه.

وبقيت أنا وميرال صامتتين. سألتني: – وأنتِ يا صيامين، ماذا تتمنين؟

ابتسمت وقلت بصوت يملؤه الأمل: – أريد زوجًا يحبني بصدق، ونعيش في قرية بين الحقول والجبال والماشية.

ضحك الجميع ساخرين: – لم تتعبي من البادية بعد؟

أجبتهم بهدوء: – بل إن تعبي يسكنه جمال الأرض الخضراء، وصفاء السماء، ودفء الشمس الهادئة، وأصوات الماشية، وهجيج الكبار. الحياة في البادية تعلم الصبر والكفاح والمثابرة والكرم.

كان حديثي يملؤني عشقًا لها، حتى أني صرخت قائلة: – أعشقها... لا شأن لي بغيرها!

وكنت حينها لم أتجاوز الثانية عشرة.

وفجأة قطعت أمي الجلسة بصوتها: – انتهى وقت التمني، هيا إلى الصلاة.

وكأن أبواب السماء فُتحت يومها، فدخلت منها أمنيات أخواتي.

وفي صباح اليوم التالي، قالت لي أمي:

– صيامين، خذي الحمار واذهبي به إلى الحقل مع جمانة وميرال.

لا أنسى ذلك اليوم أبدًا... كنت أمشي بخطوات واثقة والحبل ملفوف حول خصري والحمار يتبعني. فجأة، ومن دون مقدمات، لم أشعر إلا وأنا أُسحب أرضًا خلف الحمار، بعدما أفزعته سيارة مرت بجانبنا بصوت بوقٍ عالٍ.

لا أذكر من ساعدني حينها، لكنني أذكر جيدًا ضحكات أخواتي وأمي التي لم تتوقف شهرًا كاملًا كلما رأين خدوشي.

قالت ميرال ساخرة أمام طلاب المدرسة لمعلمي:

– أتدري يا أستاذ؟ البارحة الحمار سحب أختي صيامين!

فضحك المعلم، وضحك الجميع... حتى صارت كل الأحاديث عن تلك الحادثة، ولم يبقَ سوى ذكرى: "الحمار سحب صيامين."

قال لي المستعصم يومًا:

– صيامين، هل تقرئين كتبًا؟

أجبته: – لا، أقرأ القرآن فقط، وبعض كتب الفقه.

قال لي بابتسامة: – تعلمين يا صيامين أن لكِ خاطرًا جميلًا، لكنك لا تكتبينه.

رددتُ بسخرية خفيفة: – وما هذا الخاطر الجميل؟ أنا لا أعرف أن أكتب شيئًا منذ صغري.

قال بجدية: – صيامين، أرجوكِ، اقرئي واكتبي.

أجبته وأنا أحاول الهروب من الأمر: – غدًا سأقرأ.

قال بإصرار: – أسألكِ بالله أن تكتبي... لا تقولي غدًا، اكتبي الآن.

أجبته: – الآن لا أستطيع.

فقال لي: – ما رأيكِ أن أضع لكِ امتحانًا بسيطًا؟

قلت موافقة.

فكان سؤاله الأول:

– عرّفي كلًّا من الأم والأب.

ثم تعمق أكثر وقال:

– عرّفي الشعور.

ظللتُ أفكر طويلًا دون جدوى، لم أستطع أن أعرّف الشعور، ولا حتى أن أفهمه. ابتسم وقال لي:

– لم تعرفي، أليس كذلك؟

قلت له بسخرية: – نعم، ما هذا المصطلح الغريب؟

قال: – فلتعرّفي "التعب".

أجبته بسرعة: – هو طريق لكل شيء جميل.

فرح كثيرًا وقال: – صيامين، هذا تعريف عميق جدًّا، كأنكِ فيلسوفة!

ضحكت، وشعرتُ حقًّا للحظة أنني فيلسوفة.

علّمني أن اقرأ واكتبي."

كلماته سكنت قلبي واحتلته، وأقنعني أن أقرأ الكثير من الكتب، وكان يقول لي دائمًا:

"أسألكِ بالله أن تقرئي كتبًا تُصقل بها خواطركِ وتكتبي."

كان يعلّمني من قلبه، حتى شعرتُ وكأنه يقف أمامي يحدثني بجد، وعيونه تلمع أملًا أن أقرأ وأكتب.

وقلت في نفسي: سأحاول... حبًّا له.

أما أنا، فلم أكن أعرف أن أعبر عمّا في داخلي.

قال لي يومًا: – صيامين، غدًا أريد مقالًا منك، اعتبريه واجبًا عليكِ، إذا لم تكتبي سأزعل منكِ.

وبدأتُ أكتب عنه، يدي ترتجف، وحروفي مبعثرة، وعقلي مشتت، لكني واصلت حتى أكملت أول مقال لي. وكان بعنوان:

"أعلم أن تواصلي معك خطأ، لأنك رجل أجنبي عني، وهذا في شرع الله...

وبقدر علمي أنه خطأ، أعلم أكثر أنه لن يكون يومًا خطأ."

أتدري لماذا؟

لأننا لسنا ممن يتبع الهوى.

والله شاهد أنك كنت لي أكثر من أخ، كنت مثل أبي، كنت خير ناصح ومرشد.

تعلّمت منك الكثير والكثير، ولم يأتِ ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه دون حياء، ولا كسرنا حاجزًا يتسرب منه ما يؤذيني أو يؤذيك.

كان الليل يمرّ بنا طويلًا دون أن نشعر به، ليس حبًا أو هُراء، بل شيء يفوق كل ذلك:

تجمعنا أخوّة الدين، وهي تفوق أخوّة النسب.

والله حقًا... كلنا لبعض: علمًا، صبرًا، أملًا، جبرًا، قوةً...

لا يستطيع شعوري أن يمتزج بالكلمات، ليتك تعرف قدرك.

ما تفعله عظيم، بل أعظم من عظيم...

أثق بك كل الثقة.

لو كان كل الناس مثلك، لنزل المطر ليلًا وأشرقت الشمس نهارًا، ولما سمعنا صوت رعد أو برق.

أريد أن أطلق عليك مصطلحًا يناسبك، لكنّي أحس أن كل المصطلحات ناقصة في معناها.

أنت في النهار:

مبتسم، تُكمل عملك، ترزق نفسك وأهلك، تساعد غيرك، تعمل في بيتك، جليس صالح لمن حولك، معلم مخلص، و"بن بلاد" وفيّ، أسدٌ حرٌ طليق.

وفي الليل...

أنت شخص آخر تمامًا.

لو لم أعلم أن الله معك، لقلت: هذا، والله، ليس الشخص الذي نعرفه نهارًا.

سأحاول أن أصف ما أحسّ به:

أنت في الليل، سجين ألمك، سجين مرضك، أسد في قفص، مظلوم، مكسور، تعتريك الوحشة والخذلان.

الكل يظن أنك في غرفتك تصارع مرضك فقط، ولا يعلمون أنك تصارع من صارعهم رسول الله ﷺ وخلفه جيش من المسلمين وملائكته ترافقهم وتحارب معهم.

أما أنت، فوحيد، تحارب وحدك.

لكن الله مكّنك من ذلك، وربّاك على نهج نبيه ﷺ.

وبقيت من أولئك الرجال الذين لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها.

حين أرسلت له هذا المقال، بكى، وقال لي:

"والله، لم يسبق أحد أن وصفني هكذا... أو شعر بي كما شعرتِ. ما أصدق ما تكتبين!"

وقتها أحسست أن لي مشاعر تفهم وتكتب...

ليت لي عقل أدبي، لكتبت عنه ما لا يملّ الناس من قراءته.

فهو رجل ابتُلي بسحرٍ خبيث، تجسّد في جسده وأتعب روحه، وشقّ ملامح وجهه.

يقضي الليل باكيًا متألّمًا، لا يعلم بضعف حاله إلا الله، وأمه وأبوه، وزوجته وبناته، يبكون بحرقة من هول ما يرونه فيه.

ومع ذلك...

يصبح صباحًا، يواصل عمله، يشقى ويكدّ.

ثم يأتي إلى صلاة التراويح متوكئًا على عصًا، وهو في عزّ شبابه، من شدة المرض.

يتقدّم ويصلي بالناس، ويخشع خلفه مَن خلفه، تصفو قلوبهم وتستقيم أجسادهم في الصفوف.

ثم يعود في الليل لقيام الليل، يطيل الركوع والسجود، وجسده كله يرتعش، ولا يقوى على الوقوف.

لم يعرف يومًا معنى الاستسلام...

صاحب إيمان قوي، وعطاء جزيل.

أذكر ذلك الصباح جيدًا...

استيقظنا قبل بزوغ الشمس،

لم تكن خيوطها قد نُسجت بعد إلا ونحن نتحرك في البيت.

نادتنا أمّي ومعها شذى، أختي، لنُحضّر وجبة الإفطار.

كنّا نستيقظ على عجل، نركض ونتسابق لنظفر بأماكننا المفضّلة على المائدة.

أخي وسام دائمًا ما كان يتأخر، ثم يقتحم المكان بصوته العالي:

"هذا مكاني يا جمانة!"

فترد عليه جمانة بعنادها المعتاد:

"بل مكاني أنا... لقد سبقتك!"

أما أنا وميرال فكان بيننا نزاع أبدي على كأس اللبن.

ثم يأتي أبي، فينتهي كل خلاف...

يجلس في منتصف المجلس، يفترش ركبتيه بثقله وهيبته،

وحوله نجتمع نحن، أحد عشر روحًا: سبعة إخوة وخمس أخوات،

نأكل بمتعة، نضحك، نتشاجر أحيانًا...

لكن دفء العائلة كان يغمرنا، ويجعل كل شيء أجمل.

يا إخوتي... هل نسيتم؟

كيف اقتسمنا قطعة خبزٍ يابسة كأنها وليمة؟

كيف شربنا معًا من جَرّةٍ بالية؟

كيف تشاركنا البِسمة قبل أن نعرف قسوة الدنيا؟

ما زلت أشعر بيد أخي الحارث يوم كنت مريضة،

حرارة جسدي تحرقني، وهو يقترب بعطفه ويقول:

"صيامين، هل أنتِ متعبة؟"

أجبته بصوتٍ واهن: "نعم، يا أخي."

فأحضر لي المهدّئات والدواء، ثم قبّل جبيني هامسًا:

"إن احتجتِ شيئًا، ناديني... سأكون عندك فورًا."

غطّاني بلحافه، وتركني لأنام، وخرج بهدوء...

يا له من بلسمٍ لم أذق مثله يومًا.

لا تجعلوا متاع الدنيا يُطفئ الودّ بيننا...

فلو كان بصري يُهدى، لكنت أهديته لأخي الحارث،

ولو كان النور يُقتسم، لاكتفيت به نورًا لي.

وأذكر أيضًا تلك الليلة...

كنت نائمة مع أخواتي، فإذا بالحارث يقتحم نومنا صائحًا:

"من منكن تريد بسكويتا ؟"

ظل يصرخ حتى استيقظ الجميع،

أما أنا فاخترت النوم على البسكويت،

وضعت الوسادة على أذني، لكنّه لم يتركني،

اقترب مني، ووضع قطعة البسكويت في فمي،

وظل يده هناك حتى مضغتها.

تمتمتُ وأنا نصف نائمة:

"لو سمحت يا حارث... أريد قليل ماء."

ابتسم وقال بصوتٍ مرح:

"الآن تأمرين يا أختي!"

عاد يحمل كوبًا كبيرًا من الماء،

مددت يدي لآخذه، فإذا به يسكبه على وجهي!

وانفجر ضاحكًا، ضحكةً ملأت البيت فرحًا.

ضحكتُ معه ضحكةً طفولية، ثم قلت:

"حسنًا يا حارث... أوعدك أنني سأردّها!"

أحضرت كوبًا أكبر وملأته ماءً،

اقتربت منه، فوجدته يجلس بجانب ميرال،

سكبت الماء نحوه، فإذا به يحتمي بها،

لتغرق ميرال بالماء بدلًا منه!

غضبت ميرال، فتحالفت معي لنكبّه سويًا،

لكن لم نستطع، لأن ضحكاته كانت تربكنا.

وانتهى بنا الأمر وقد تحوّل البيت كله إلى بحرٍ من الماء،

موجاته من ضحكنا ولهونا.

وفي ليلةٍ من ليالي مرضِ المستعصم، وهو يئنّ من شدّته،

وقد بدا التعبُ واضحًا في عينيه،

وتجسّد الألم في شراييه،

قال لي بصوتٍ واهنٍ...

"صيامين... إني أشهدك أمام الله وملائكته ورسله أني قد عفوت عنهم، دنيا ودين."

أي عفوٍ هذا؟!

أناسٌ تعمّدوا أن ينزعوا منه قوته، وماله، وصحته، وراحته، وحتى عائلته...

أخذوا كل ما يخصه، ومع ذلك عفا!

قالها بصدقٍ يشهد عليه الله:

"عفوت عنكم... يا سَحَرة، يا كَهَنة... يا من كسرتموني بسحرٍ وجان."

بكيت وقتها بكاء الصمت، بكاءً لا يُسمع له صوت.

وقلت في قلبي: يا رب، ما أعظم هذا الرجل...

ومنذ تلك اللحظة، تعلّمت أن أعفو عن كل من أساء إليّ، فقد علّمني هو أن العفو رفعة لا يقدر عليها إلا العظماء.

أحببته أكثر... وكان حاضرًا في كل سجدةٍ من سجداتي.

ثم التفت إليّ وقال:

"صيامين... والله إنك أعظم عندي من أمي وأبي وكل الناس."

يا أيها المستعصم... أي قلبٍ تحمله؟!

لم يُقدَّم بيننا يومًا شيء من متاع الدنيا،

ما جمعنا سوى الكلمة الطيبة والصدق الخالص،

لكن قلوبنا اجتمعت بقدر الله، خالصةً لوجهه.

كنت أراه في ضعفه، يشكو ويبكي...

كان المرض متغلغلًا في شراييني، يمزّق جسده، فيقول لي:

"صيامين... المرض يهلكني، ويهلك أهلي معي.

اليوم فقدت السيطرة... كسّرت كل شيء في غرفتي،

وصحوت على دموعي، وزوجتي وابنتي تمسكان بي بقوة...

خجلت منهما، خجلت كثيرًا."

كنت أستمع، أحاول أن أرفع قلبه،

أُذكّره بالله، وأعزّز ثقته بربه...

وكانت ثقته بالله لا مثيل لها، قلبه أنقى من ماءٍ نازلٍ من السماء.

وكان يردد لي دائمًا:

"الأرواح جنود مجنّدة."

لم أفهمها وقتها إلا بالظاهر...

لكنني كنت أدرس أحيانًا، وفجأة يخطر في بالي بقوة...

فأسكت وأتوقف، ثم أكتشف بعدها أنه أرسل رسالة في نفس اللحظة!

كأن قلوبنا تتخاطر قبل هواتفنا...

ومن يومها، أدركت جمال مصطلح التخاطر

حتى جاء ذلك المنام...

حين صرخت روحي... وسمعني!

في ذلك الحلم الغريب،

لم أكن أمشي كعادتي...

كنت كالنور،

وناس حولي، وجوه مألوفة وأخرى لا أعرفها،

أصوات مبهجة، وساحات جميلة...

كأن هناك عُرسًا، أو فرحةً كبيرة.

كنت أرى شخصًا،

يقال إنه سيكون شريك حياتي،

لكني لم أكن مهتمةً له.

وفجأة... خرجت من كل ذاك،

نظرت في كل مكان،

ولم أَرَ إخوتي بينهم،

تساقطت دموعي...

ليس ضعفًا، بل شوقًا.

وفجأة... رأيت شخصًا أعرفه،

على وجهه ابتسامة،

لكن لم يكن فيها أمان،

اقترب... لكن لم يكن اقترابه حبًا،

كان مخيفًا جدًا.

نظرت إليه بصمت...

وفجأة، صرخت روحي صرخة،

لم يسمعها ذاك الحشد...

كانت صرخة روح، لا تسمعها الآذان.

سمعه شخص...

كان نائمًا على فراشه البارد،

ليس بيننا علاقة قريبة،

فقط صلة روحية...

سمع صوتي،

رأى الناس،

رأى ما كنت أراه...

كأنه كان معي.

ساعدني دون الجميع،

دون تردّد،

رأى ما كان يهددني،

ووقف أمامه،

دون كلام... دون صراع...

كان حضوره كافيًا لكي يزول الخطر.

استيقظت من نومي،

حمدتُ الله أنها كانت رؤيا فقط...

دون مقدمات،

قال لي:

"سمعتُ صوت صراخك."

صمتُّ، ولم أعرف عن ماذا يتكلم...

قال:

"رأيت شخصًا أراد أن يعتدي عليك..."

أخذتني الدهشة...

لم أستوعب ما قال،

قال:

"ساعدتك... أنقذتكِ."

هنا... لم أعد أرى شيئًا،

لجهلٍ كان بي،

شككتُ بكلامه...

لأول مرة، ظننتُ أنه يكذب عليّ،

كيف لك أن ترى في منامك ما أرى؛

لكنه كان يتكلم

وكأنه يقرأ ما كان معروضًا في مخيلتي ...

لم أكن أعلم أن الأرواح حين تصرخ،

لا تختار من يسمعها...

وأن الله يجعل بعض الأرواح

أقرب من آدم...

وأشد حضورًا من الكلام...

لم يكن حلمًا عاديًا،

بل رسالة بلا حروف،

وصدقٌ لا يحتاج تأويلاً...

إني صرخت... وهو جاء،

والسماء تشهد

سبحان من جعل روحًا تشاركني، وهي بعيدة عني، نتقاسم المنام في ذات الساعة واليوم... سبحانك ربي، ما أعظمك، وما أجمل روحك يا مستعصم

فقال لي ذات يوم:

"أريدك في خدمة يا صيامين."

فأجبت: "في الخدمة أنا."

فقال لي بخجل:

"صيامين، أريدك أن تساعديني لنساعد فتاة قد تورطت مع بعض الرجال، ولديهم الكثير من صورها. صيامين، أريدك أن تذهبي إليها، وتوصلي لها رسالتي، وتتعاملي معها بكل رفق ولين."

ذهبت إليها، وكان الطريق طويلًا وشاقًا جدًا، فوصلت له رسالة المستعصم.

فردت عليّ قائله: "لا أعرفه."

صدمتني، وهو الذي دفع مالًا كثيرًا من قوت أولاده من أجلها، وحفظ سترها أمام الجميع.

فقلت لها بصوت غاضب، وعيناي تمتلئان بالقوة:

"لم أقطع تلك المسافة كلها لأجلك

انما الأجل أهلك... و لأوصل لك رسالة: إذا لم تأتِ عفيفة، ستأتي رذيلة."

وبالفعل، بعد ساعات قليلة، كانت عند المستعصم تبكي من سوء فعلتها.

رغم أن خطأها كان برغبتها هي؛ فقد كانت تصوّر نفسها وترسل صورها.

سألته بدهشة: "ولماذا تدافع عنها؟"

فأجابني بكلمات لن أنساها:

"قد لعب الشيطان بها... وهي ابنة ناسٍ محترمين. والله حرام أن ينكسر قلب أبيها وإخوتها بسببها."

رفعت رأسي إلى السماء وقلت: ما أجمل حسن ظنه يا رب...

لكني سألت بخوف: "هل حقًا صورها عندهم؟"

قال: "نعم."

كنت مضطربة، أسمع لأول مرة شيئًا كهذا.

فقال لي فجأة: "ولو صورك أنتِ وقعت بيد أحد، ماذا ستفعلين؟"

ارتجفتُ وقلت: "أنا فتاة تخاف الله."

فقال: "وماذا لو سُرقت منك، وأثبت لك أحدهم أن لديه صورك وأرسلها لك؟"

شهقتُ: "والله يتوقف قلبي في لحظتها... لن أحتمل!"

قال بجدية: "يجب أن تكوني قوية إن حدث لك شيء كهذا."

قلت باكية: "كلا، سأموت من الصدمة."

فقال: "الحمد لله أنني لم أخبرك..."

فزعت: "بماذا؟!"

قال: "لا شيء..."

لكن القلق تملّكني، حتى أجبرته أن يصدقني.

فقال لي: "توعديني تكوني قوية، وتوثقي أنني لن أتركك ما دام فيّ نفس؟"

ارتجفتُ أكثر وقلت: "أسألك بالله، ما الأمر؟"

قال: "اكتشفتُ أن هاتفك قد اخترق، وسُحب كل ما فيه..."

قرأت رسالته ألف مرة، خانتني عيوني وعقلي.

سألته مذهولة: "كيف؟!"

فقال: "أتذكرين حين غيّرتِ حسابك؟ كان وقتها مشتركًا مع عصابة لا تخاف الله... لكن اطمئني، لقد حللت المشكلة، وأنتِ الآن في أمان."

تجمّد قلبي، كأن الرسالة صفعتني حتى كادت تُخرج روحي.

قلت في نفسي: يا رب، هذه أمور لا تحدث إلا في المسلسلات، هل يمكن أن تحدث حقًا في بلاد المسلمين؟ في مجتمع لا يعرف إلا النقاء والحياة البسيطة؟

بكيت بشدة وأنا أقرأ كلماته، بينما كان يثبتني ويهدّئني.

قال لي: "والله يا صيامين، كنت أريد أن أخفي عنك هذا الأمر حتى يوم القيامة... لكنك أجبرتني أن أبوح.

يا ترى، ماذا فعلت حتى يبعثك الله إليّ فجأة لتحمي شرفي وعفتي وكرامة أهلي دون أن أدري؟"

كنت صغيرة لا أعرف عن الحياة إلا أنها أكلٌ وشرب، وتعبٌ ومرض، و

ضحكات عابرة...

أما ذاك العالم المظلم فلم أعرفه من قبل.

وفي تلك اللحظة أحسست أنني انتهيت...

-وفي الصباح، أشرقت الشمس بظلمة قلبي...

حضّرت وجبة الإفطار، امتزجت بصمت روحي، وطُبخت بنار قلبي.

بعد أن أكملت تحضيرها، وقفت في صالة البيت، وقلت بصوتٍ خائف:

"الإفطار جاهز... هيا لنفطر."

وكان صوتٌ آخر في داخلي يصرخ:

"لا تأتوا... لا أستطيع أن أرى وجوهكم!"

التفّ الجميع حول المائدة، يملأهم الأمان والسلام، يتبادلون الأحاديث عن يومهم القادم...

ورأيت شغف الحياة يضيء عيونهم، بينما داخلي يحترق بنارٍ تهيج في صدري.

قمت من مكاني، أجمع ذرات الرماد التي تساقطت من حريقي...

نادَت عليّ أمي بصوتها الحنون:

"صيامين، أختك سارة ستأتي لتحضر وجبة الغداء معنا هي وأولادها وزوجها."

أجبتها بصوتٍ قوي:

"حاضر يا أمي، سأجهّز الغداء."

تظاهرت بالقوة... وأنا محطّمة تمامًا.

كل شيءٍ فيَّ قد تحطّم.

لم تكن صوري وحدي معهم، بل صور أخواتي الأربع...

وهذا ما حطّم ذرات قلبي.

كنت أتحمّل ما يحدث لي، لكن لا أستطيع أن أتحمّل ما قد يحدث لهن.

وبعد ساعة، حضرت أختي سارة، رأتني أتراجع حين اقتربت،

لكنها احتضنتني، قبّلت رأسي، وقالت بصوتٍ يملؤه الود:

"كيف حالك يا صيامين؟"

أجاب ضميري:

"يا أختي، بسببي قد تنتهي حياتك، قد لا يلعب أولادك في حضنك، ولا تسندي نفسك إلى زوجك..."

لكن شفتاي قالتا:

"الحمد لله."

دخلت المطبخ، أخفي ملامح وجهي وذبول عيني في دخان الحطب ورائحة الطعام.

كنت أطبخ دون تركيز، فعقلي كان خارج المطبخ، خارج البيت... بل خارج الأرض.

يحاور ربي دون توقف.

لاحظت أمي عليّ اضطرابي، فاقتربت وقالت:

"صيامين، أحضري لي وعاءً فارغًا."

أحضرت الوعاء وأنا أنظر إليه دون توقف، كأنها المرة الأولى التي أراه فيها...

عيناي عالقتان به، وقلبي وفكري شاردا عني.

انتبهت فجأة، فرأيت الوعاء بيدي،

وضعت وعاء اللحم وسكبت محتواه فيه،

فإذا بصوت أمي يعلو بدهشةٍ قاتلة:

"صيامين! ماذا تفعلين؟ ما بك؟!

لماذا تُفرغين وعاء اللحم؟"

قلت بخجلٍ شديد:

"آسفة يا أمي، لم أفهم لماذا طلبتِ الوعاء... ظننتُ أنك تريدين أن أفرغ اللحم فيه."

فقاطعنا صوت أخي عماد ـــ قُرّة عيني وأمل روحي ـــ وهو يقول:

"ماذا تريدان أن أحضر لكما؟"

ثم سمعت أغنية... أول مرة أسمعها منه.

قلت له بقلقٍ شديد:

"عماد، ماذا تسمع؟"

لم يُجبني.

أعدت السؤال بصوتٍ يملؤه الخوف عليه والحب له،

ونظرتُ إلى عينيه المرهقتين:

"عماد يا أخي، إن الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء الزرع،

أتريد أن تكون منافقًا يا أخي؟"

شعرت بأنهم سيسخرون مني،

لكنّي لم أستطع السكوت.

قلت له وأنا أبكي:

"يا حبيبي، والله إنّي أخشى عليك من الهواء البارد...

أبكي لأني أراك تذهب في طريقٍ نهايته السمّ والهمّ."

كل كلمة خرجت مني ومعها ألف دمعة من عيني.

بكيت عليه... وبكيت مما في صدري.

لم أستطع التوقف عن البكاء.

جلس أخي عماد صامتًا، ينظر إليّ دون أن ينطق،

وفي داخله سؤال يصرخ:

"هل ما أفعله حقًّا سيّئ إلى هذا الحد؟"

وفي اللحظة نفسها، دخلت أختي شذى — التي تكبرنا —

رأت دموعي وكلماتي وصمت عماد، فجلست بجانبه صامتة.

لاحظت شدّة بكائي، وارتجاف أصابعي، وتقطّع أنفاسي...

اقتربت منّي، احتضنتني، وقالت:

"صيامين، ما بكِ؟ هذا ليس بسبب عماد، قولي لي ما بكِ؟"

بكيت أكثر، وقلت في نفسي:

"أنا محرومة... حتى من البكاء دون سؤال."

كنتُ خائفة إلى حدٍّ لا يُحتمل...

خوفٌ يلفّ قلبي، يغمر روحي، ويكتم أنفاسي.

لم أستوعب ما حدث... كانت الصدمة قاتلة، أثقلت صدري حتى كدتُ أختنق.

مرّت أيّامٌ كأنها دهر، وأنا غارقة في الحيرة، لا أفهم شيئًا، ولا أعي ما أقول.

هل حقًّا صوري بين أيدي آخرين؟

ماذا عليّ أن أفعل؟

هل اختُطفت صور أخواتي أيضًا؟

ماذا لو مسّهم سوء؟

هل أخبر أهلي؟ وهل سيصدقونني؟

كانت هذه الأسئلة تنهش روحي، تكاد تفتك بي...

حتى جاء ذاك الصوت الذي لطالما حمل السكينة في نبراته — المستعصم —

يربّت على قلبي بكلماته الحنونة:

"لا تخافي... أنتِ في أمان."

كان يعمل في الخفاء، لا يكلّ ولا يملّ،

يسعى ليجعلني أنسى، ليُطمئن قلبي، وليثبّتني على قدميّ،

بينما أنا عاجزة عن معرفة حاله،

لا يخبرني بشيء، فقط يمنحني الأمان بصمته العميق.

كانت الثقة به معركة داخلية...

لكنه في الوقت ذاته كان الأمان ذاته.

كان المستعصم — رغم بعده — كالجدار الذي احتميت به من الريح.

وكان يوشك أن يُنهي كل شيء دون أن يخبرني كيف أو متى.

لم أستطع أن أشارك أحدًا،

لا قريبًا، ولا صديقًا، ولا حبيبًا، ولا حتى عابر سبيل.

كنتُ أحمل كل شيء في صدري،

أيامٌ تمرّ كأنها عصور، وأنا بلا طبع...

لا آكل، ولا أشرب، ولا أنام كبقية الناس.

سأقول لكم لماذا لم أستطع أن أخبر أهلي بما حدث...

في ليلةٍ هادئة، كنّا نائمين بطمأنينة تغمر البيت، والسكينة تملأ أركانه.

فجأة، دوّى صوت باب البيت، أيقظنا جميعًا، وملأ الخوف صدورنا.

اقتربتُ من أمّي بخطواتٍ خفيفة، أرتجف من شدّة الرعب، وهمستُ لها:

"أمي، هناك شيء يحدث في الخارج..."

قالت لي بهدوءٍ لتُسكّن خوفي:

"لا تخافي يا صيامين، ناموا جميعًا... سأبقى أنا مستيقظة أترقب أي شيء."

كان أبي تلك الليلة في الحقل يحرس ثماره، وإخوتي في الخارج مع أصدقائهم.

اتصلت أمي بأخي وسام وقالت له:

"يا وسام، تعال فورًا... هناك من يفزعنا كل ليلة."

ردّ أخي بصوتٍ يمتلئ بالغضب:

"من يجرؤ على ذلك؟! والله لأجعله يدفع الثمن!"

جاء وسام ومعه ابن عمي، وأحاطا البيت من جميع الجهات.

وما هي إلا لحظات، حتى عاد ذاك الذي اعتاد أن يفزعنا ليلًا...

لكن هذه المرة وقع في أيديهم.

رأيته بعيني وهو تحت أقدام أخي، والدماء تغطي وجهه.

كان يتوسل بالبكاء أن يرحموه، لكن الغضب أعمى القلوب،

وصوت وسام يهدر في أرجاء القرية:

"تعالوا، اشهدوا على هذا الرجل!"

اجتمع الناس، حشد كبير يحيط به كحلقة النار،

وهو مفترش الأرض، مكسور النظرات.

ثم جاء أبوه، يمشي وعيناه في الأرض، خجلٌ وانكسارٌ في ملامحه.

جلس قرب ابنه وقال بصوتٍ مبحوحٍ يقطّع القلب:

"العفو يا أهل المقدرة... العفو."

علمت حينها أن الأب كان يعلم ما يفعله ابنه، لكنه لم يقدر على منعه.

فقال أبي بعد أن رقّ قلبه:

"عفا الله عنكم. اذهب أنت وابنك، وغادرا هذه البلاد."

ظننت أن الأمر انتهى... لكنه كان بداية بلاءٍ جديد.

بعد يومين، وأنا أمشي إلى الحقل مع أخي عماد – وكان عمره أحد عشر عامًا –

كنا نسير جنبًا إلى جنب، يده الصغيرة في يدي، يحاول أن يخطو بخطاي نفسها.

جاء ابن عمي نحونا وقدّم لنا بعض الحلوى، قبلناها دون أن نفهم ما وراءها.

وفي طريق العودة، جاءتني أخته وهي تضحك وقالت:

"صيامين، أخي يريد أن يتقدّم لخطبتك، وأرسلني لأعرف رأيك."

تجمّدت ملامحي، وغضبتُ بشدّة:

"قولي له لا أقبله أبدًا، ودعيه لا يعاود الحديث في هذا الموضوع،

وإلا أخبرتُ وسام وسيكون ما لا يُحمد عقباه."

وصلته الرسالة، فانقلب حبه إلى حقد، وبدأ كيده.

ذهب إلى أخي وسام وقال له بخبث:

"أتدري لماذا كان ذاك الرجل يأتي كل ليلة؟

سمعت صيامين تحدّث أخواتي وتقول إن الرجل كان يعنيها!"

زرع الشك في قلب وسام، وسرعان ما أثمر مكره.

دخل عليّ وأنا أتلو القرآن، والمصحف بين يديّ،

عيناه محمرّتان، وصوته يقطر غضبًا:

"صيامين! قولي الحق، ماذا كان بينك وبين ذلك الرجل؟!"

وقفت مذهولة، لم أفهم ما يقول.

صرخ في وجهي مرة أخرى:

"لا تخفي الأمر! قولي الحقيقة!"

سمع أبي وأمي وإخوتي صوته، فجاؤوا جميعًا.

وقف أبي بجانبه، ينظر إليّ بنظرة لم أنسها يومًا،

نظرة اتهامٍ مزّقت قلبي قبل أن تصل كلماته.

قال أبي بغضبٍ ويده تقترب من وجهي:

"إن كان ما قاله أخوك صحيحًا، فستدفعين الثمن غاليًا!"

صرختُ باكية:

"يشهد الله عليّ، ويشهد كل حرفٍ في كتابه أني بريئة مما تزعمون!

بكت أمي، وقالت بصوتٍ متهدّج:

"صيامين لا يمكن أن تفعل هذا... إنها أطهر من أن تُظن بها التهمة."

لكن البعض نظر إليها وكأنها أم تدافع عن عيب ابنتها.

أما شذى وسارة وميرال وجمانة فصمتن،

لكنّي سمعت قلوبهن تقول: "نثق بك يا صيامين."

رفعت رأسي وأنا أبكي وقلت:

"والله يا أبي ويا أخي، إن شرفي وجاهتي أمام ربّي.

إن غضب الله عليّ، فذلك أعظم عندي من عقابكم.

افعلوا بي ما شئتم، لكن روحي لن يأخذها إلا خالقها."

توقف وسام لحظة، وصوته يرتجف:

"أختي... هل أنتِ بريئة حقًا؟"

نظرتُ إليه بعينٍ دامعة:

"يا وسام، أرادوا أن يكسروا الثقة بيننا،

إن لم تثق بي، فليس من حقك أن تنادني أختاه."

وفي تلك اللحظة، أيقن وسام أني بريئة،

وأن ابن عمي لم يكن سوى شيطانٍ زرع الفتنة بيننا.

أما المستعصم بالله كان يطمئن قلبي بكلمات قليلة، لكنها كانت كفيلة بأن تزيل كل خوفٍ سكن داخلي...

كان يعرف محتوى روحي كما لم يعرفها أبي ولا إخوتي.

قال لي ذات مساءٍ بصوته المليء بالثقة والحنان:

"قد تفاوضت معهم، وجلبت لهم بعض المال، واحتلّ الأمر... أوشك على الانتهاء."

نظرت إليه وقلبي يرتجف، ورددت دون وعيٍ مني، كأن روحي سبقت عقلي بالكلام:

"الأمر لم ينتهِ... ولن ينتهي بهذه البساطة."

لم أكن أدري وقتها لماذا قلت ذلك، لكن قلبي كان يتحدث بما لا يفهمه عقلي.

ثم مضت الأيام... وساد الصمت.

اختفى صوته الذي كان يملأ أيامي بالأمان، ولم يصلني عنه أي خبر.

غمرتني الحيرة، وغرقت في بحرٍ من القلق والاضطراب،

كنت أسأل نفسي وأدعو ربي:

ما الذي حدث؟ كيف حاله يا رب؟ ما الذي ينتظرني بعده؟

وفي لحظة ضعف، كتبت له رسالة... كانت يداي ترتجفان ودموعي تسابق حروفي:

"أعلم أنك تتعب من أجلي، ماديًاونفسيًا وجسديًا واجتماعيًا،

أسأل الله ألا يسامحني على كل ما سببته لك."

كنت أبكي بمرارة، والدموع تغمر وجهي حتى كادت تخنقني.

لكنه أجابني سريعًا... بصوتٍ جعل قلبي يسكن بعد اضطرابه:

"أسألك بالله يا صيامين، لا تقولي هكذا...

فكل رجال الأرض فداءٌ لك، وما عاش من يؤذي بنتي."

في تلك اللحظة، شعرت أنه ليس مجرد شخص...

كان أبي و ملاذي ، وسندي في كل خوفي، وملاذي وقت ضعفي.

أي فضلٍ من الله أن يرسل لي إنسانًا بهذه الرحمة، بهذه القوة، وبهذا الوفاء؟

لقد كان المستعصم نعمةً عظيمة لن أنقطع عن حمد الله عليها،

ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهراً.

لكن القدر... لم يهدأ.

بعد أيام، وصلتني رسالة من حسابٍ مجهول.

قرأتها، وقلبي كاد يتوقف،

كأن الخوف كله اجتمع في صدري دفعة واحدة.

كانت الرسالة تقول:

"لا تخافي مني، أريد منك شيئًا فقط ثم سأرحل...

لكن إياك أن يعلم المستعصم،

وإن علم... أعدكِ بأنك ستندمين."

لم أردّ.

شعرت وقتها أن العالم كله ينهار من حولي،

أن كل ما بُني في داخلي من طمأنينة قد سقط فجأة.

ولم أعد أستطيع حتى أن أفكر في إخباره.

لكن كما اعتدت منه دائمًا، لم يتركني أغرق وحدي...

كلمته أخيرًا، وصوته كان كنسمةٍ تطفئ نيران قلبي:

"لا تخافي... انظري ماذا يريد منكِ،

وتعاملِي مع الأمر ببساطة... عودي إليه، وسنرى ما يريد."

فعلت...

تواصلت مع ذلك الرجل،

وإذ بي أكتشف أنه يعرف عني كل شيء،

كان يراقب هاتفي،

يعرف كلماتي، حركاتي، وحتى أنفاسي.

سألته بخوفٍ وارتباك:

"من أنت؟ وماذا تريد مني؟"

فأجاب ببرودٍ يجمّد الدم في العروق:

"لا أريد شيئًا سوى أن تكوني صديقة لي...

دون أن يعلم المستعصم.

وإن رفضتِ... فستندمين.

كل ما يخصكِ بين يديّ أنا وحدي."

حاولت أن أكذّبه... أن أقنع نفسي بأنه مجرد تهديدٍ فارغ.

لكن لم تمر لحظات حتى أرسل لي صورة...

رأيتها، وتجمّد كل شيء في داخلي.

كانت صورة أختي الصغيرة.

نظرت إليها مرارًا وأنا لا أصدق،

قلبي يرتجف، روحي تصرخ، والخوف يسري في عروقي كالسمّ.

تلك اللحظة كانت أقسى ما مرّ عليّ...

شعرت أن الأرض انكمشت تحت قدمي،

وأنني أُساق نحو ظلامٍ لا أستطيع الفرار منه.

لكن المستعصم...

كما عهدته دومًا، كان هناك.

لم يختفِ، لم يخذلني.

وقف شامخًا كعادته، يحمي قلبي من الانكسار،

ويمنحني القوة لأواجه، لأستمر، لأتنفس رغم الألم.

لقد كان... وما زال،

اليد التي امتدت لتنتشلني من الغرق،

والقلب الذي وسِع ضعفي دون أن يُدينني،

والأمان الذي لم تمنحه لي الدنيا كلها.

كل ذلك كان من جهتي أنا...

كان بعضًا من أحزاني فقط.

أما المستعصم، فكان غارقًا تمامًا في أمواج كيدهم، يصارع وحده، بصمتٍ يخفي وراءه وجعًا لا يُحتمل.

قال لي ذاك المجرم، وقد عرّف نفسه: "أنا ثامر، أمي عربية وأبي غير عربي، أريد أن أتعرف عليك فقط."

نظرت إلى كلماته باستغرابٍ واشمئزاز، وقلت له: "ولماذا لا تريد أن يعرف المستعصم؟"

فردّ ببرودٍ كأنّ قلبه حجر:

"إن كنتِ تخافين عليه، فلا تُخبريه...

وإلا، أعدك أنك ستندمين، وسأفعل به أكثر مما فعلتُ من قبل، وبقسوةٍ لن تتخيليها."

صُدمت، وقلت له: "ماذا فعلتَ به؟"

فأجابني بكلماتٍ مزّقت قلبي ودوّت في رأسي كالرعد...

قال:

"هو من أتى إليَّ يريد التفاوُض، طلبتُ منه مبلغًا كبيرًا...

وجمع المال من كل مكان... أخذ من إخوته، وباع ذهب زوجته، حتى أكمل المبلغ.

ثم جاءني بنفسه، يحمل كيس النقود بين يديه، ووجهه مملوء أملًا أن ينتهي الأمر فعلاً... أن يريحك يا صيامين."

لكن، ما إن سلّمه المال، حتى صدمته الحقيقة المرة.

قال له ثامر:

"ليس صيامين وحدها بين أيدينا...

هناك الكثير من الفتيات، ومنهن من بلدك، من عائلتك أيضاً.

الأمر لم ينتهِ ولن ينتهي بهذه السهولة."

وقف المستعصم مذهولاً، وقال له بصوتٍ مبحوح: "وماذا تريد مني؟"

ردّ ثامر بابتسامةٍ باردة:

"ستفعل كل ما أطلب منك، وإلا ستنتهي صيامين مع كل هؤلاء الفتيات."

ثم مدّ له أوراقًا بيضاء وقال له:

"بصم هنا... وهنا أيضاً."

وبصم المستعصم على أكثر من ورقة، دون أن يعلم ماذا سيُكتب فيها لاحقًا.

لقد عرف حينها أن ثامر وعائلته عصابةٌ مجرمة، لا تعرف لله حرمة ولا تخشى عذابًا.

حياتهم كانت دنسًا وفسادًا، يتاجرون بأعراض الناس، ويبيعون شرفهم بأموالٍ قذرة.

كان ثامر يُدخل الرجال على أمه وأخواته مقابل نقودٍ،

ويُصوّر ما يجري لينشره في مواقعهم، ويفسدوا به أبناء المسلمين وبناتهم.

عندها أدرك المستعصم أن هدفهم ليس سرقة صورٍ ولا جمع مالٍ،

بل هدفٌ أحقر وأدنى: أن يُذلّوا، ويُفسدوا، ويجعلوا من الطهر خطيئةً يُعاقَب عليها.

جعلوا من أنفسهم أدواتٍ رخيصة، لتخريب النفوس النقية،

ومن قاومهم أوقعوه بالتهديد والصور حتى يُخضعوه صاغرًا.

لقد مكروا بالمستعصم مكرًا عظيمًا...

ومع كل ما مرّ به، لم يخبرني بشيء،

لم يُشركني حتى في وجعه، كي لا أخاف... كي لا أنهار.

أي قلبٍ تملكه يا مستعصم؟

وأي ثباتٍ هذا الذي جعلك تصمت وأنت تُسحَق؟

كنتَ حقًا اسمًا على مسمّى...

اعتصمت بالله، فكنتَ للمحنة جبلًا، وللألم صبرًا،

ولقلبي المكسور أمانًا لا يُنسى.

فهمت الآن لماذا أراد "ثامر" أن أكون صديقته...

لم يكن يريد صداقتي، بل كان يريد أن يجعلني أرى بعينيّ ما فعله بالمستعصم، أن أتعذب بمعرفته كما تعذّب هو بفعلهم.

قال لي يومًا:

"المستعصم ضحّى بماله، وبعرضه، وبحياته... من أجل فتيات لا يعرف من هن، ولا من أي أرض أتين.

لم يكن يعلم أنهنّ مجرد بنات مسكينات... لكني جعلته يدفع الثمن."

اندهشت... وصابني الرعب.

يا رب، هل حقًا ما يقول؟

كانت الليلة ساكنة، والظلام حالك، والسكون يعمّ المكان، إلا قلبي...

قلبي كان يرتجف في كل زاويةٍ منه خوفًا وارتباكًا.

كتبتُ للمستعصم:

"كيف حال القطعة التي تسكن يسار صدرك؟"

فأجابني بهدوءٍ يقطر تعبًا:

"الحمد لله."

سألته بدموعٍ تتساقط بلا توقف:

"أما زلت تُخفي عني شيئًا؟"

فقال بصوتٍ خافت:

"كلا."

فهمستُ وأنا أرتجف من الحزن:

"أيا مستعصم... أما تعبت؟"

ساد صمت ثقيل، كأن الليل نفسه يستمع،

ثم تكلّم بصوتٍ مختنقٍ بالحزن والغضب:

"ماذا قال لكِ هذا المجرم ثامر؟

يكفيك يا مستعصم تعبًا تخفيه في صدرك... والله إنك مغلوب."

ثم بدأ يشكي، وصوته يتكسر بين الحروف،

كأن كل كلمة تخرج من جرحٍ مفتوح:

"لقد فعلوا بي ما لا يتحمله رجل... ولا تصبر عليه الجبال.

أذَوني في عرضي، ومالي، ونفسي...

جعلوا مني مجرمًا، وأنا بريء.

وبكاء بُكاء الرجال جميعًا،

وأبكيتُ أنا بدموعي كل الأمهات."

ثم أكمل بصوتٍ خافتٍ مبحوح:

"لم أقدر أن أشكي لأحد، لا أمي ولا زوجتي ولا أبي...

ولا أيٍّ من أهلي.

أتلقى الضربات بجسدٍ صابر، وقلبٍ شاكر، وبصمتٍ مرير.

ذات يوم، أراد ثامر أن يفضح فتاة بريئة،

فوقفت أمامه وحدي، أحاول أن أصدّ وحشيته...

لكن خلفه عصابةٌ كاملة،

أولها عنده، وآخرها على كرسي الدولة.

ودافع عن نفسه المستعصم بكل ما يملك...

لكنه ابتُزّ ابتزازًا لا يُحتمل،

أجبروه أن يخلع ملابسه، وأن يُصوّر نفسه لهم،

وإلا سيهلكون الفتيات.

فكان يكشف عن نفسه ليسترنا نحن...

ليحمي عِرض غيره بعِرضه هو."

عندها فقط، فهمت ما كان يريده "ثامر" مني.

قال لي ثامر:

"انظري يا صيامين... إن أردتِ أن تنقذي نفسكِ، والمستعصم، وكل الفتيات اللواتي ساعدهن،

فهناك فرصة واحدة أمامك."

أجبته مسرعة، والرجاء يملأ قلبي: "ما هي؟"

ظننت باب النجاة قد فُتح لي...

لكنها كانت بوابة جحيمٍ أخرى تُفتح في وجهي.

قال لي بابتسامةٍ خبيثةٍ ماكرة:

"يجب أن تخضعي أنتي والمستعصم لما أريده أنا."

قلتُ بدموعٍ وحشرجة: "وماذا تريد؟"

قال ببرودٍ كأنه لا يعرف الله:

"أريدكما أن ترتكبا الفاحشة معًا.

أريد أن أُسقِط الطهر من عيونكما.

أن لا يبقى فيكما نقاء...

أن تعيشا في الوحل، شئتما أم أبيتما."

صرخت وبكيت وقطعت الحديث معه فورًا...

كلما ذكّرته بالله، ازداد نفورًا، وكفرًا، وجرأة على الباطل.

هربت إلى المستعصم، وأنا باكيةٌ مكسورة،

لكني وجدته أكثر كسرًا مني...

رأيته يبكي، لا دموع عادية، بل دموع كالجمر.

قال لي:

"صيامين، سامحيني بحق الله،

يشهد الله عليّ أني أطهر من السماء،

وأصفى من السحاب،

لكنهم شوّهوني، وأرادوا كسري بكِ.

سأترك الدنيا قبل أن أسمح بما يريدونه أن يحدث."

صرخت باكية: "أجننت يا مستعصم؟"

قال:

"لا تخافي، لن أدعهم يصلون إليكِ.

سأذهب... ولو متّ، المهم أن لا يُمسّ بكِ سوء."

قلت له:

"كلا، يا مستعصم... إن كنتَ غريقًا، فسنغرق معًا، أو ننجو معًا.

سأخبر أخي عماد، سيفهمني."

قال بصوتٍ واهن:

"كلا، لن يفهمك، وإن فهمك هو، فلن يفهمك الجميع.

عماد يصغركِ، ولن يستطيع حمايتكِ."

حينها، ذهبت إلى مكاني الوحيد الذي أهرب إليه بخوفي وأعود منه بأملي...

مكاني الذي أدفن فيه كسري، وأخرج بجبرٍ من السماء...

ذهبت إلى خالقي.

توضأت، ووقفت أمام الله،

وشعرت كأن الله أمامي، ينظر إليّ، يسمعني من بين كل خلقه...

صرخت بصمتٍ لو كان له صوت،

لسمعته كل المخلوقات على الأرض والسماء.

قلت في قلبي:

"يا رب، إن كنتُ في يومٍ قد خِفتك، وحفظت نفسي من معصيتك

فنجّني منهم، يا الله.

وإن كنت قد كتبت عليّ أن أكون من أهل النار،

فاجعلني أدخلها دون أن ألمس هذا الذنب.

يا الله، أنت تعلم...

أن جهنم أهون عليّ من أن يمسّني بشر.

يا من طهّرت مريم، وحميت ساره،

طهّرني واحمني.

لستُ بصلاحهم ولا بصيامهم،

لكنّي أحبك، يا الله."

فجأةً أغمي عليّ...

لم أعلم متى توقف بكائي،

ولا متى سكت صوت روحي المنكسر.

استيقظت على صوت أذان الفجر،

صلّيت، وعدت إلى سريري، أحتضن لحافي،

أحاول أن أختبئ من شرر الناس الذي يطاردني حتى في نومي.

نادَتني أمي بصوتٍ يملأ قلبي طمأنينةً وخوفًا في آنٍ واحد،

خوفًا أن تبكي مني أو عليّ.

قالت:

"صيامين، سنخرج اليوم إلى السوق."

قلتُ: "حسنًا يا أمي، سأرافقك."

لبست عباءتي الفضفاضة،

كأنّي أخفي فيها حزني كله،

وصعدنا السيارة...

ولأول مرة، لم أردد دعاء الخروج ولا دعاء الركوب،

استبدلته بدعاءٍ آخر خرج من أعماقي:

"يا رب، ها أنا أخرج من بيتي برفقة أحنّ قلبٍ عرفته،

إن كان هناك نجاةٌ منهم، فاعدني بها مع أمي،

وإن لم تكن هناك نجاة،

فاعدني بجسدٍ تتناثر أشلاؤه في سبيل طهري."

مضت ثلاث ساعاتٍ في السوق،

وقلبي يخفق ينتظر خلاصًا...

ظننت أن النهاية اقتربت،

لكنني عدت إلى بيتي سالمة،

فأيقنت أن الله سيُنقذني منهم،

وأن رحمته لا تُغلب، مهما اشتد ظُلمهم.

وحين ضاقت بي الأرض بما رحبت، رفعت بصري فرأيتُ الحشود من حولي، لكن..."

لمَاذَا أرى كلَّ هذا الحشدِ على الأرضِ

ولا أجدُ واحدًا منهم يمدُّ لي يَدَ إنقاذ؟

كأنّي طيرٌ يحتضر... تتكسّرُ أجنحتي بين أنظارٍ صمّاء وقلوبٍ عمياء.

أيُّ جُرمٍ ارتكبته أنا؟

وأيُّ ذنبٍ جنيتُ حتى أُصبحَ بين مطرقةِ العصابةِ وسندانِ المجتمع؟

لم يكتفوا بسرقةِ صوري ليبتزّوني بها، بل راحوا يطالبونني بما يهدمُ إنسانيتي، بما يُطفئُ روحي...

ولم يكتفِ قلبي بالخوفِ منهم، بل جرحهُ خوفٌ أعظم: خوفي من أهلي، من مجتمعي.

نعم... من أهلي!

أليسوا من يُفترض أن يكونوا سَندي وملاذي؟

لكنّي أعلم يقينًا أنّهم لن يسمعوا صوتي، لن يصدّقوا براءتي، لن ينظروا في عينيّ ليلمسوا الحقيقة.

سيحكمون عليّ قبل أن يسمعوا دفاعي.

سيقولون: "وقعتِ في حبٍّ محرّم... جلبتِ العار."

وسيتحوّل بيتي إلى مقصلة، وأنا فيه الضحية والجلاد واحد.

أما مجتمعي؟

فما أقسى أن تعيش وسط أناسٍ لا يرون إلا القشرة!

مجتمعٌ يبرّئ المجرم ويجلدُ البريئة.

مجتمعٌ لا يعرف أنّ الشرف ليس صورةً تُسرق ولا جسدًا يُبتزّ، بل روحٌ صافية لا تُباع.

لو نطقتُ بجرحي، لكان جزائي القتل...

نعم، القتل!

سيقولون: "لتُغسل العار."

أيُّ عار؟!

أهذا هو العار؟

العارُ والله أنتم... أنتم يا من تُدافعون عن القاتل وتكسرون الضحية.

أنا لم أصن نفسي خوفًا منكم ولا شفقةً من همس ألسنتكم...

أنا صنتها خوفًا من الله، ربّ السماوات والأرض.

لكنكم لا تعرفون إلا سيفَ العادات، وسوطَ التقاليد، وقانونَ الغابةِ الذي تُقدّسونه أكثر من شريعةِ ربِّ العالمين.

كيف أصرخ؟

بمن أستغيث؟

هل أقول لأمي؟ فتُفجَع بي ويغرق قلبها في دموعٍ لا تنتهي؟

هل أقول لأبي؟ فيشتعلُ غضبًا عليّ بدل أن يُقاتل عني؟

هل أقول لإخوتي؟ فيروننني عارًا يجب محوه؟

أهلي لم يكونوا يومًا أهلي... مجتمعي لم يكن يومًا مجتمعي.

ذهبتُ إلى عملي في صباحٍ مشرقٍ بنور ربي،

كان الهواء باردًا، وأصواتُ أقدامِ الأطفال تضرب الأرض جريًا...

يتسابقون مَن يدخل المدرسة أولًا،

أراهم يلعبون بفرحٍ نقيٍّ، كأنّ في قلوبهم سلامًا لا ينتهي.

تمتمتُ في نفسي:

يا الله لا تُوجِع قلوبهم، ولا تُرِهم من تعب الدنيا شيئًا.

وفجأة سمعتُ صوت صديقتي كيان تناديني:

"صباح الخير يا صيامين!"

فأجبتها بابتسامةٍ تخفي خلفها جبالًا من الحزن:

"صباح الأمل بالله يا كيان."

دخلنا سويًا لنكمل يومنا في التعليم،

وكانت ضحكات الأطفال ومشاكساتهم،

وحبّي العميق لعملي يُنسيني وجعي كل حين.

رنّ الجرس، وبدأت الاستراحة.

ارتفعت أصوات الصغار في الساحة،

ضحكاتهم تملأ المكان،

ينتشرون في أركان المدرسة كقطرات غيثٍ تُحيي الأرض.

اقتربت مني كيان وقالت:

"هيا لنفطر سويًا."

جلسنا تحت شجرة رمانٍ جميلة،

نتفيأ بظلالها ونهرب من حرّ الشمس،

نأكل ونتبادل الضحكات، كأن الهمّ لا يعرفنا.

كانت كيان دائمًا تناديني "قشوره"،

تقول إنني كثيرة الكلام والضحك،

أما هي فهدوؤها كان جميلاً كنسيم الفجر.

قسمت الخبز نصفين، وبدأنا نأكل،

وفجأة نظرت إليّ وسألت بصوتٍ خافت:

"صيامين... كيف حالك؟"

ضحكتُ وأنا أضع اللقمة في فمي وقلت مازحة:

"مريضة جدًا... لا أستطيع الأكل!" وضحكتُ مجددًا.

لكنها توقفت عن الأكل،

ووجهها تغيّر، وعيناها امتلأتا بالدموع:

"أسألك بالله يا صيامين، ما بكِ؟ أصدقيني."

نظرتُ إليها بدهشةٍ وقلت:

"ما بكِ أنتِ؟! نضحك ونمزح كل يوم، لماذا تسألين هكذا؟"

قالت للمرة الثالثة، بصوتٍ مرتجفٍ ودموعٍ على خديها:

"لماذا لا تُخبرينني؟ والله إنّكِ أقرب إليّ من نفسي...

رأيتُ منامًا قبل ثلاثة أيام،

رأيتكِ فيه تبكين بحرقة، وشعركِ أبيض من شدة همّك،

كنتُ أسألكِ: ما بكِ؟ فلم تُجيبي إلا بكلمةٍ واحدة: (أنا بخير)

كما تفعلين الآن بالضبط..."

ثم انكسرت ملامحها بالبكاء،

وكأن قلبها يرى ما تخفيه روحي.

تمنّيت وقتها لو أحتضنها وأبكي على صدرها،

أفرغ ما في صدري من ثقلٍ وألم،

لكنني ابتسمتُ كعادتي، وأجبتها بخفةٍ مصطنعة:

"كل هذا بسبب منام؟ لا تقلقي، لا علاقة له بي."

قالت وهي تحاول حبس دموعها:

"تكرّر المنام ثلاث مرات،

وقلبي لا يُكذّب رؤياي،

ما من روحٍ على هذه الأرض تُشبه روحكِ يا صيامين..."

ابتسمتُ وقلتُ بهدوء:

"ربما هناك شيء يُحزنني، لكني لا أنتبه له.

ألستِ من تقولين إنني مثل (الربل المطاط)،

لا أتأذى بسرعة؟" وضحكتُ.

"لكن لا تحرميني من صدق دعائكِ."

قالت بحبٍّ صادقٍ ووجهٍ منير:

"منذ رأيت المنام وأنا صائمةٌ قائمة من أجلك."

رنّ الجرس مجددًا، يفصل بين كلامنا والدرس القادم،

لكن قلبي لم يعد كما كان...

أيقنتُ أن الأرواح جنودٌ مجنّدة،

وأن روح كيان ملازمةٌ لروحي كظلّها.

في اليوم ذاته، حلمتَ أنني أبكي،

الدموع في المنام هي نفسها التي سقطت في صلاتي تلك الليلة،

حين كان كل شيءٍ حولي صامتًا،

إلا قلبي الذي كان يذوب ويقطر ألمًا.

لم تسمع أمي صوتي،

ولا أحسّت بي أخواتي،

ولا لاحظ إخوتي حزني،

ولا فهمني أبي...

لكن كيان رأتني بعين قلبها،

حين عميت أعين الدنيا عني.

بعدما خذلني الجميع، وارتدّ عني كل من كنتُ أظنهم عونًا وسندًا،

وبعد أن صرتُ غريبةً بين الوجوه، ووحيدةً في زحامٍ لا يسمع أنيني،

تذكّرتُ حقي، وقيمي، وأصلي الذي لا يُهان.

رفعتُ رأسي، ومسحتُ دموعي، وقلتُ للعالم:

أنا... تلك الريحان.

أنا خُلقتُ لِلْمَسِّ... للشَّمّ...

أنا إن لامستني يد الحنان، أضاءت لمعتي،

وفي تلك اللمعة... صورتك.

أخفيها بوجلٍ... بخجل... بحرصٍ كأني أحمي سرًّا من نور.

أنا لي من القرآن نصيب:

النساء، و الطلاق، و مريم، و النور، و المجادلة.

أنا وصيّة رسول الله ﷺ،

أنا الوصية التي قال فيها: «حرّجتُ عليكم النساء».

أنا أختك...

أنا أمك...

أنا زوجتك...

أنا ابنتك...

أنا بابك إلى الجنة.

أنا التي خُلقتُ لأؤنس وحشتك،

وجُعلتُ من جوار قلبك... كي لا تؤذيني.

أنا التي أعطاني الله نصف إرثك،

وقال لي ربي: «كُلي واشربي وقَرّي عينًا».

وإن كنتُ صالحة...

كنتُ خيرًا من ألف رجلٍ غير صالح.

أنا قطعة منك،

أنا التي قال عنها الحبيب ﷺ: «رِفقًا بالقوارير».

أنا التي ربط الله على قلبها،

وجعل طفلاً رضيعًا يتكلم ليهدئ روعي:

«لا تخافي... ولا تحزني».

أنا التي جعل الله راحتي تملأ السماوات السبع،

أنا أول شهيدة في الإسلام،

أنا التي بكلمةٍ... أسلم حمزة،

وببصيصٍ... اهتز قلب عمر.

أنا التي قال عنها رسولي ﷺ:

آمنت بي حين كفر بي الناس،

صدقتني حين كذبني الناس،

شاركتني مالها وبيتها،

رزقني الله منها الولد،

ونزل جبريل يقرئها السلام من السلام الرحيم.

أنا التي جعل الله لها بيتًا بجواره.

أنا... أنا وكفى.

ومع كل ما أنا عليه،

ومع كل ما أوصاكم الله ورسوله في حقي،

كنتم أنتم أول من خذلني.

شعرت أنكم سيوفًا عليّ بدل أن تكونوا درعًا يحميني.

وأنا المظلومة،

تحطّم قلبي، وانكسرت روحي،

ورميتموني في قاع الظلم.

أي عارٍ هذا؟ وأي جرمٍ ارتكبت؟

أهكذا يُكافأ الطهر؟

أهكذا يُدفن الشرف حيًّا؟

والله لن أسامح من ظلم،

ولن أغفر لمن اتهم،

فأنا خصيمتكم أمام ربٍّ عادلٍ لا يُظلم عنده أحد.

ما زلتُ أذكر كيف بكيتُ في ذلك اليوم...

كنتُ في غرفتي، جالسةً وحدي،

أعتزل الجميع... أعتزل ضحكات إخوتي، وجلوسهم برفقة أمي.

كان لكلٍّ منهم مجلسه، يشاهدون التلفاز،

أما أنا... فلم أُوقن يومًا أن ذاك مكاني،

حتى وإن كان فيه جميع أهلي.

أخذتُ مصحفي، وبدأت أُكمل حفظي،

وكنتُ حينها في سورة الأحزاب،

حتى وصلتُ إلى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قرأتُها... فانفجرتُ باكية، راجية،

وقلتُ: يا رب، أريدك أنت، وأريد رسولك، وأريد الآخرة، أريد أن ترضى عني.

أيقظت تلك الآية كلَّ ركنٍ في قلبي،

وسالت دموعي غزيرةً، كلما قرأتُ عن الصحابيات،

أتمنى أن أُحشر بين سطور سيرتهنّ،

أن أكون واحدةً منهنّ، ولو في الذكرى.

كنتُ حينها في التاسعة عشرة من عمري،

زهرةً في ربيع أهلي،

شابّةً... لكني لا أشبه الشباب.

لم أحبّ الدنيا، ولا مالها، ولا رجالها.

الحمد لله الذي عافى قلبي من زينتها،

وجعلني أغترّ به وحده،

وأكتفي بحبّه عن كل شيء.

ومن هي مثلي؟

خلف الحب تلهث، وفي متاع الدنيا تلهو...

أما أنا، فكنت أبحث عن نورٍ لا ينطفئ، وعن قربٍ لا يُفقد.

يا رب، هل دموعي في ذلك اليوم كانت صادقة؟

هل كنتُ أحبّك حقًّا؟

يا رب، إن كانت تلك الدمعة نزلت حبًّا وخوفًا منك...

فأنجني بها، واجعلها شفيعةً لي عندك.

أريد أن أصرخ بصوت يهز الأرض والسماء،

يسمعه الأصم، ويقرؤه الأبكم،

وينصت له المجنون،

ويقوم له الأسير على قدميه،

ويسمعه الحر في قبره، والشهيد في روضته،

بل ويبلغه الرحمن على عرشه

إني مغلوبه... إني مغلوبه ...

مغلوبه في شرفي، في طهري، في إيماني،

في صدقي وقرآني، في أهلي ومجتمعي،

على أرض أمر الله أن يسود العدل فيها.

لماذا؟

لماذا يا أبي لم تحملني أقدامي إليك لأبكي بين يديك؟

وأقول: هناك من يكسرني، هناك من يذبحني ظلمًا؟

لماذا يا أخي لم تكن قوتي ورمحي؟

أماه... لو جئتُك لذاب قلبك،

ولنزفت الدموع من عينيك،

ولكنتِ همّي فوق همّي، وغمّي فوق غمّي.

لكنّي أعلم الآن لماذا لم تكونوا ملاذي،

لأن مجتمعنا قاسٍ... مجتمعنا يقتل الطهر بدل أن يحميه.

أشعر أني في قومٍ كقوم موسى جاءهم الله بوطنٍ آمن،

وأمرهم أن يحاربوا للحق كي يأمنوا،

فأبوا القتال، فحلّت عليهم لعنة الله،

وكانت الصحراء تيهًا وقبرًا لهم .

وكأن الزمان يعيد نفسه...

أنا تلك الأرض.

أنا من يجب أن تحاربوا لأجلي،

أنا من يجب أن تصونوا كرامتها،

أنا من يجب أن تكون أرضًا آمنة بين أيديكم،

لا أن تتركوني للظالمين،

ولا أن تبيعوا صمتي للعار

وصِرتُم عارًا في قومٍ أعزّهم الله بالإسلام.

اعترافٌ بيني وبين الله

أحاول أن أجد سببًا لما يحدث،

أبحث عن خيطٍ واحدٍ يقودني نحو الفرج...

لكنّي كلّما مددت يدي، امتدّ إليّ ظلامٌ آخر.

قال ثامر ذات يوم، بصوتٍ مسمومٍ بالحقد:

"أيُّ فتاةٍ شريفةٍ أريد أن ألطّخها...

لا أريد أن أرى أحدًا أنقى مني."

تمتمتُ بخوفٍ لا يسمعه أحد:

أيّ قلبٍ تملك يا هذا؟

وفي أيّ ظلمةٍ تُقيم؟

حينها فقط فهمتُ لِمَ خلق الله النار بكلّ تلك الشدّة،

بجمرٍ يشوي الأرواح، وبطونٍ تغلي...

لأمثال هذا الشرّ.

قلتُ له في خوفٍ حاولتُ أن أخفيه خلف الاتزان:

"لسنا ملائكة... كلّنا نخطئ."

كنت أحاول النجاة، لا تبريرًا له.

لكنّه أراد أن يختبرني،

أن يرى كم سأنهار،

فأرسل لي صورًا تقتل أنوثتي،

ومقاطعَ تهشم ما تبقّى من نقائي.

كم تمنّيتُ حينها لو احترق جسدي،

وجُمِع رماده ونُفخ في الريح،

ولا تصيبني تلك السهام في قلبي وإيماني.

يا رب،

إني أعترف...

خنتُك، وخنتُ رسولك،

وخنتُ نفسي، وأهلي، وصديقاتي،

وكلّ من ظنّ بي خيرًا.

لكنّي لم أخنك عن رغبةٍ،

بل عن خوفٍ خنق أنفاسي،

عن ضعفٍ لا يراه أحد سواك.

يا رب،

اغفر للخوف الذي جعلني أرتكب ما لم أُرد،

لكنّك تعلم أنّي أحبّك،

وأنّك ركني الشديد،

فخذ مني ما شئت،

لكن لا تأخذ عني رضاك.

لن يفهم أحدٌ ما بداخلي،

لن يشعر أحدٌ بطعم الخوف حين يسكن العظام.

حتى أنا... لا أفهم أحيانًا كيف صرتُ هكذا.

أتذكّر ذلك اليوم جيّدًا.

كانت أختي جمانة مريضة،

رافقتها إلى المستشفى من الصباح حتى المساء،

لم أذق طعامًا،

ولم أستطع أن أخرج لأشتري شيئًا.

كنت جائعة،

لكن خوفي من الرجال كان أشدّ من جوعي.

حين عادت أمّي قلت مسرعةً:

"أماه، لم أذق شيئًا منذ الصباح... إني أتضوّر جوعًا."

صرخت في وجهي: "ولِمَ لم تأكلي؟!"

خفضت رأسي بخجلٍ وهمست:

"أخاف من الرجال."

قالت بنبرةٍ يغلبها العتاب:

"ألم تري الشارع؟ مليءٌ بالفتيات! أما تقدرين كما يقدرن؟"

آه يا أمي...

لو تعلمين أني فضّلتُ الجوع على أن أرى ما يُخيفني.

واليوم، أراني أعيش في قلب ما كنتُ أخشاه.

اليوم، صار خوفي يواجهني كلّ صباح.

صار كإبرةٍ في وريدي،

حقنةً سامةً تغذّيني بالألم كلّ يوم.

إن كنتُ فاسدةً...

فقد سمّموني ببطء.

وإن كنتُ صالحة،

فبتكرار ما أرى، صرتُ فاسدة.

وها أنا أعيش بين ناريْن...

كلتاهما تأكلني.

أنا فتاة صغيرة،

لم أتصوّر يومًا أن في هذه الدنيا جرمًا بهذا القبح،

لكنّي عرفتُ الله منذ نعومة أظفاري،

وحفظتُ اسمه في قلبي كما يحفظ الطفلُ صدرَ أمّه.

كنتُ قوية،

قوية كالجبل،

لكنّي بشر.

لي شهوات وغرائز كما لهم.

وكلما غلبتني نفسي،

ذكّرتها بعذاب الله.

وحين تضعف عزيمتي...

أعاقب جسدي.

كنتُ أحرق باطن قدمي،

كي لا يرى أحدٌ ندبي.

وأحيانًا أَجلد نفسي خمسين جلدة دون رحمة،

وأقسم أن لا أعود... ثم أعود.

ثم أبكي.

أبكي بحرقةٍ لا تشبه دموع التوبة،

بل تشبه صرخةَ روحٍ تحترق ولا تموت.

وكلّما سجدتُ قلتُ:

يا رب...

أعني،

ولا تتركني لنفسي،

فإن تركتني، هلكت.

أنا وحدي عالقة في حربين؛

حربٍ مع نفسي، وحربٍ مع عدوي.

أسأل الله أن يُعينني على نفسي،

وأن تُعينني نفسي على عدوي.

وأنا الآن مع ثامر أرى ما أرى،

وقلبي كله يقينٌ ورجاءٌ بأن الله لن يجعلهم يظلمونني،

ولن يمسَّ أحدٌ جسدي،

حتى وإن ظلّ مصمّمًا على العبث بشرفي.

وها هو الغد، يوم عرفة،

اليوم الذي لا تُرَدُّ فيه دعوة.

تهيّأت له بكل إيمانٍ ويقينٍ بأن الله سيجبر كسري،

متلهفةً له كأنه يومُ فتحٍ لي.

دخلت غرفتي، أغلقت الباب،

وبقيت فيها ذاك النهار بطوله وليلِه،

لم أخرج إلا لوجبة الإفطار.

دعوت الله بكل أسمائه،

وبالأدعية التي إذا سُئِل بها أعطى،

ظللت أرددها دون مللٍ أو كلل،

فقد علمت أنني على بابٍ كريمٍ،

وحاشاه أن يردني خائبة.

لم أتوقف لحظةً واحدة عن مناجاة الرحمن الرحيم،

وفي اليوم التالي لعرفة،

انشرح صدري وامتلأ بهجةً وطمأنينة،

كأن الله قد قذف في قلبي نور الأمان،

فخررتُ ساجدةً على ركبتي،

أشكر ربي لأنه سمعني،

ووعدني بالاستجابة.

سبقتُ العطاء بالشكر،

فقد أيقنت أن الله لا يُخلف وعده.

وها أنا في يوم العيد،

بين ضحكات الأطفال وصوت ألعابهم،

وتكبيرات الإحرام تملأ السماء،

وصدى التهاني يتعالى،

وأنا أهرب من كل هذا الصخب،

مختنقةٌ، مكتئبة،

كل تنهيدةٍ تخرج من صدري بقوةٍ دون إذني،

حتى أكاد أشعر أن صدري سيتشقق من كثرتها.

لستُ معترضةً على قضاء الله وقدره،

فقد علمت أن هناك فتياتٍ

يملأ الجهل حياتهن،

يبحثن عن الشباب في كل زاوية،

يتصورن، ويرسلن، ويلعبن،

كأن الله ليس له وجود.

أما أنا، تلك الفتاة

التي يتجاوز جارها الأربعين،

ولا تعرف ملامح وجه ،

تخشى حتى أن ترفع بصرها،

فقد أراد الله أن أمرَّ بكل هذا

ليعلم صدقي،

ويختبر ايماني.....

ذاك الذي يهددني ويمسك بتلك الصور،

يريد أن يدفعني إلى وحله ومستقنعه،

أن ألطّخ شرفي لأفلت من كيده،

أن أكشف عن جسدي،

الذي يشهد الله أنّه لم يطّلع عليه أحدٌ موضع إبرةٍ منه...

كلا يا ظالم، كلا وكلا...

شرفي هو وجاهي أمام ربٍّ جبّار،

وبالله، إنّي حرّةٌ شريفةٌ عفيفة،

نقيّةٌ وفيّةٌ كصفاء السماء واتّساع الأرض.

حرّةٌ ولو تمزّقت أشلائي،

حرّةٌ ولو دُفنت حيّة،

حرّةٌ ولو صُوّبت عليّ سهام العالم.

تجلس الساعات تحاول إفسادي،

تظنّ أني ضعيفةٌ، سهلةُ الكسر،

لكنّك لا تعلم ماذا صنع القرآن في صدري...

تقول متبجّحًا: "سأجعلها لي، كما أريدها أن تكون!"

أما علمتَ أن الأمر بيد ربِّ الكاف والنون؟

تُضيّع الساعات تلو الساعات،

تسقيني سمًّا،

تسقيني خبثًا،

تسقيني كفرًا،

تسقيني طغيانًا وفسوقًا وتكبّرًا.

وتظن أنني سأكون كما تشتهي؟

هيهات!

ما طمح قلبك، ولا بلغ خبثك، ولا مسّ كفرك قلبي.

والله، مهما حاولت، ومهما تجرأت،

ومهما قلت وصنعت وعرضت،

لو فتحت قلبي وغرست فيه شرك،

ما نبت لك فيه نبتٌ.

لا أقولها تكبّرًا أو غرورًا،

بل يقينًا علمته وعشته.

جلست طويلًا مع القرآن،

فتطهّرت الخواطر، وزال كل خبث،

وما زال القرآن معي... ومعي ربي.

فأيُّ مكانٍ تظنّ أن لك بيننا؟

كلا وربّ البيت العتيق!

نحن عباد الله الأحرار،

أكرمنا بحلاله عن حرامه،

وابتعدنا عن المعصية،

لا خوفًا من نارٍ تأجّج،

بل خوفًا من وقفةٍ بين يدي الجبّار.

حرّة... ولو تمزّقت.

فلتُمسكني يدُ أبي،

ولتُمزّقني ألف مرّة،

ولا تمسّني يدُ مخلوقٍ غيره.

فليقتلني قهرُ إخوتي،

ولتخنقني غيرتُهم،

ولا أموتُ على يدِ من أراد إذلالي.

وإن كان الظلم يحدّق بي،

سأحتمله...

لكنني لن أتنازل عن كرامتي،

ولن أسلّم نفسي لمن لا يراني كما يراني ربي.

سأقف يوم الدين بشرفي،

وجهيّتي بين يدي الله طاهرة،

ولن أحتاج حجّة،

حتى وإن تمزّقت أضلعي من الوجع.

أموت حرّة،

وقلبي لم يعصِ أبي،

ولم يُوجع قلب أمي،

ولم يُدنّس اسمي أمام الله.

لا أريد أن أعيش بذلٍ،

أخفض رأسي طوال عمري،

وبين أضلعي ندبةٌ

ما زالت تنزف بصمت.

أفضل أن ألقى الله مظلومةً لا ظالمة،

أن أُظلَم ولا أظلم يدًا ربّتني،

ولا قلبًا صانني.

إن لم أستطع أن أشرح وقتها،

فلن أندم...

سأعود لوالدي في منامه،

وأطمئن قلب أمي ودفئها،

وأقول: والله، إنّي بريئة.

ما أشعر به الآن

كاد يقتل قلبي،

ويحرق ما تبقّى مني.

لكنّي باقية...

لن أنكسر،

ولن أُذل،

ولن أموت إلا على يد أبي،

إن كان لا بدّ من موت.

وحتى إن بصق الوريد آخر ما فيه،

فسيصرخ دمي عاليًا:

"أنا حرّة... طليقة... لله وحده."

دخلت حلقاتِ القرآن،

جلستُ على ركبتي، والمصحف بين يدي، أراجع حفظي،

أنظر إلى من حولي بعينِ قلبي...

تلك تُراجع، وتلك تحفظ، وأخرى في زاويةٍ بعيدةٍ تُسمّع،

وتلك تلقّن بحماسٍ وشغفٍ لا يهدأ.

أما أنا... فقلبي مزدحمٌ بالهموم،

لم أعد أرى شيئًا يُبهجني،

طال الألم يا أهل الأمل، طال...

لم يكن يومًا، ولا شهرًا، ولا عامًا، ولا عامين،

ولا أدري إلى متى سيدوم.

في صدري غصّةٌ تخنقني،

تمنعني حتى من البكاء...

كنتُ أملك الدموع،

وها أنا اليوم محرومةٌ منها.

أريد فقط أن أنزع قلبي من صدري،

أن أُسكته، أن أُلقيه بعيدًا،

وأغفو أخيرًا بطمأنينةٍ لا تشوبها الذكريات.

أعترف...

بأن جمع أشلائي بات مستحيلًا،

أنا ممتلئةٌ بي، ممتلئةٌ حتى الاختناق.

لا أحتمل اختلاط أحدٍ بي،

إمّا أن أبقى ممتلئةً،

أو أن أفرغ من كل شيء.

وها أنا اليوم... خاويةٌ على عروشي.

ضميري يعذبني، لا يرحمني،

وإن غفر الله لي،

أخاف أن لا يغفر لي ضميري.

ومن كان ضميره حيًّا،

يعلم تمامًا كيف يكون عذابه أشدَّ من النار.

أذكر ذاك اليوم...

حين أجبرني ثامر أن أرى المقاطع المحرّمة رغمًا عني،

وبعدها بساعاتٍ ضاقت بي الأرض بما رحبت،

كأنّي حشرةٌ في جحر نملةٍ تتنفس خوفًا.

هربتُ إلى نومي، إلى خوفي، إلى ألمي،

أردت أن أريح روحي ولو لحظةً واحدة.

لكنّي رأيتُ أبي في منامي...

كان يمدحني كما كان دائمًا،

كلماته حنانٌ يغمرني من صغري حتى كبرت.

استيقظتُ أصرخ:

"يا رب، لم أخنه... وأنت أعلم بي!"

وبكيتُ حتى بزغ الفجر،

مسحت دموعي، وخرجت إلى أهلي كأن شيئًا لم يكن.

نمت بعدها ثلاثة أيام،

في النهار أعمل، وفي الليل أبكي،

أخاف النوم،

أخاف أن أراه مجددًا في المنام.

الحمد لله،

سُلبت مني أشياء كثيرة،

لكن لم يُسلب مني إيماني.

أنا أستيقظ مظلومة، بلا أمان،

هناك من يهددني، وأنا وحيدة،

عارية من القوة،

حتى نومي أصبح خوفي الأكبر.

لكنّي أتمتم دائمًا:

"الله لا يحمل غصنَ ثمرٍ فوق طاقته، حتى وإن دنا."

هل أنا قوية فعلًا؟

وهل ما حملتُه يُحتمل من فتاةٍ في العشرين؟

الليل ثقيل، والسكوت يخنقني.

كل من في البيت نائم، إلا أنا...

ما زلتُ أبحث عن طمأنينةٍ أضعتها بين السجود والدموع.

الورق أمامي، والقلم بين أناملي،

لكن يدي ترتجف وكأنها تكتب وصيتها الأخيرة.

تعبت...

والله، إن قلبي لم يعد يحتمل،

كل حرفٍ أكتبه كأنه جزءٌ يُنتزع مني.

كتبت لهم كل ما استطعت،

لكن ما خفي في صدري أعظم،

وأقسى من أن يُقال.

الذي كُتب، لا شيء سوى ألمي،

كان حبره دمي، وحروفه قهري،

وما علمته للناس،

هو شيءٌ مما لم أجرؤ يومًا على كتابته.

أنا وحدي...

عالقةٌ بين حرب نفسي وحرب عدوي،

أرجو أن يُعينني الله على نفسي،

وتُعين نفسي على عدوي.

أشعر أني وصلت لآخر الحكاية،

ليس لأني هُزمت،

بل لأن قلبي لم يعد يملك ما يُقاتل به.

أغمض عينيّ،

أضع المصحف على صدري،

وأهمس لنفسي:

"اللهم إنك ترى ما لا أُبدي، وتعلم ما أخفي...

فارحمني برحمتك، واغسل عني هذا الوجع."

إن رحلتُ، لا تبكوا عليّ،

فأنا لم أمت إلا بعد أن انتهيت من كتابة وجعي.

وكل ما في هذه الأوراق هو أنا،

هو صوتي حين صمت الجميع،

هو دمي حين نزفت بلا جرح.

أنا لم أكتب رواية...

أنا فقط كتبت نهاية نفسي

"يا الله لا تجعلني وجعًا لأحدٍ من بعد موتي.

في اي ظلمة تعيشون؟

في زمنٍ تاه فيه النور،

وصار الطهر تهمةً،

والعفةُ تُساقُ إلى المشنقةِ باسم "العيب"،

وُلدتُ أنا...

عذراء في زمانٍ لا يعرف النقاء إلا في المواعظ،

زمانٍ تُشترى فيه الفضيلة وتُباع كما تُباع الأرواح في سوق الخيانة.

لم أكن بطلة،

كنتُ فتاةً عادية... تحمل قلبًا أكبر من جسدها،

وإيمانًا أكبر من خوفها،

لكنّ الزمان جرّدني من براءتي،

وألقاني في حربٍ لا سلاح لي فيها إلا دمعي... وربي.

كل ما كتبته هنا، لم يكن روايةً من خيالٍ عابر،

بل من خيالٍ نابضٍ بالحقيقة،

خيالٍ رسمَ وجعَ كثيرين،

وجسّدَ صمتَ من لم يملكوا صوتًا.

هذه الحكاية ليست سيرتي،

لكنها وجعُ كل فتاةٍ نقيّةٍ عاشت في زمنٍ ملوث،

كل روحٍ طاهرةٍ حوربت لأنها طاهرة،

كل قلبٍ آمن بأن الله لا يخذل المظلومين، ولو بعد حين.

فما بين السطور لا أنا وحدي،

بل نحن جميعًا...

ضحايا هذا الزمن المظلم.

"بقلم الراحلة نحو النور

ياسمين علي هلال"